

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة العاشرة ● العددان ١١٩ ـــ ١٢٠ ● أيلول (سبتمبر) ـــ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨٨ ● الموافق محرم ـــ صفر ١٤٠٩هـ

□ في المغرب، لا يزال قصاصو السير المحترفون يساعدون على دوام هذا التراث الشعبي العربي القديم.
من كتاب: عبقرية الحضارة العربية.



□ المزادة: حافظة الماء وغيره من السوائل يستعملها الجند ثم تطورت صناعتها وادخل عليها الخط العربي الإسلامي وبعض الصور التي تعكس المرحلة التاريخية التي صنعت فيها.
من كتاب:
The World of ISLAM
Edited by Bernard Lewis

● المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.

● المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.

● المواد الواردة إلى المجلة لا ترد إذا لم تنشر.

تاريخ العرب والعالم

العددان ١١٩ ــ ١٢٠ ● أيلول ــ تشرين الأول ١٩٨٨

تصدر عن دار النشر العربية للدراسات والتوثيق في منتصف كل شهرين

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

الانتاج : مطبعة المتوسط ش.م.م.

التوزيع : الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	٧٥٠ ل.ل.	سوريا	٣٥ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

● في لبنان: للأفراد ١٥ دولار
● للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥ دولار
● في الوطن العربي: للأفراد ٣٥ دولاراً
● للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً.
● خارج الوطن العربي: للأفراد ٥٠ دولاراً.
● للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً.
● اشتراك تشجيعي ١٠٠٠دولار
● تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب. ٥٩٠٥ ــ بيروت، لبنان ● بناية أبو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات ــ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
BIMONTHLY PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT . LEBANON

Vol. 14 No. 119/120. Sept-Oct 1988

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS,
INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

الأندلس
في
عصر ابن زيدون

ملاحظات جغرافية

د. نقولا زيادة

□ «محراب» جامع قرطبة الكبير. وقد أضاف بناؤه الخليفة الحكم الثاني (٣٥٠ ــ ٣٥٥هـ/ ٩٦١ ــ ٩٦٦م).

١ ــ مقدمة

ولد أحمد بن عبد الله بن زيدون في قرطبة سنة ١٠٠٣/٣٩٤ وتوفي في اشبيلية سنة ١٠٧١/٤٦٣. وقد كانت أسرته ذات مكانة مرموقة، علماً وثراءً ونفوذاً، مما يسّر له حظاً كبيراً من العلم وصحبة علية القوم في قرطبة، ولعل ذلك كله كان مما أثار في نفس ابن الوليد طموحاً للرئاسة. وقد كان ذلك، بحسب طبيعة العصر وسننه، أمراً مألوفاً. فالحياة السياسية في الأندلس بعامة، وفي قرطبة بخاصة، كانت قد تفشّى فيها من الفوضى أدواء، وعمّها من الاضطراب أنواء، وضعفت الخلافة الأموية فيها حتى عن الحفاظ على المقام المحترم بله النفوذ، وطمع في الرئاسة والنفوذ الكثير من أصحاب الهمّة والثروة. ويبدو أن ابن زيدون كان في ذلك مشاركاً، حتى أنه لعله أسهم في الحركة التي قامت سنة ١٠٣١/٤٢٢ ففي طية فأنهت الخلافة وسلمت الأمر إلى أبي الحزم بن جهور، وهو الذي أنشأ في المدينة حكماً جديداً على غرار ما كان قد بدأ من قبل في مالقة، وما تبع فيما بعد في غيرها، مما عرف باسم ملوك الطوائف.

وهكذا فإن ابن زيدون شب في زمن كانت فيه الخلافة، التي كان قد أضعفها استبداد المنصور الحاجب بالأمر سنة ١٠٠٢/٣٩٣، تتدهور تدريجاً، حتى ذابت نهائياً في سنة ١٠٣١/٤٢٢.

ويبدو أن ابن زيدون، إن صح أنه أسهم في حركة سنة ١٠٣١/٤٢٢، كان يطمع في مكافأة تتناسب مع ثراء أسرته وطموحه ومساهمته. فلما لم يتم له ذلك، انضم إلى حركات معادية للسلطة القائمة. ولعل بعض منافسيه وحسّاده أوغر صدر أبي الحزم بن جهور، صاحب قرطبة، عليه، فانتهى الأمر بمحاكمته وسجنه (٤٣٢ أو ١٠٤٠/٤٣٣ أو ١٠٤١)، ثم هربه من السجن بعد سنة وبعض السنة. ومع أن أبا حزم بن جهور عفا عنه، فإنه لم يوله أمراً من أمور الدولة.

لكن وفاة أبي الحزم (١٠٤٣/٤٣٥) وتولى ابنه أبي الوليد شؤون قرطبة أدى إلى تغيير في حالة ابن زيدون. فقد عيّنه الحاكم الجديد على أهل الذمة ثم اتخذه وزيراً وجعله سفيراً له إلى ملوك الأندلس الكثر. وقد سفر لابن جهور لدى عبد العزيز صاحب بلنسية، وباديس صاحب غرناطة، والمظفر صاحب بطليوس وغيرهم.

إلا أن ابن زيدون كان صاحب نفس طموحة قلقة لا تستقر، فلم يلبث أن انغمس على ما يبدو، في أمر من أمور الدولة أثار حوله الريبة والشك، فعزل عن منصبه والزم المنزل، وذلك بعد خمس سنوات من العمل في البلاط القرطبي.

ونحن إذا تذكرنا أن هذه الفترة من تاريخ الأندلس كانت فترة ملوك الطوائف الذين توزعوا الحكم في الأندلس الإسلامية، كما أنه كان فترة اشتد فيها ضغط مسيحيي الشمال من الإسبان لاستعادة ما كان بأيدي العرب، فإننا لا نستغرب أن تكثر المؤامرات وأن ينتشر التآمر وأن يكثر المنتفعون من ذلك، والراغبون في الإفادة، والطامعون في المنصب. فالعصر كله كان عصر قلق واجتذاب منافع. وإمعان في اهتبال لذة العيش ما أتيحت للناس الفرصة، وفي هذه الدوّامة كان يعيش كثيرون، ومنهم ابن زيدون. وكل هذا كان يزيد في عدد منافسيه وحسّاده والراغبين في إبعاده عن ذوي السلطان. وإذا أضفنا إلى هذا ما كان له في نفس ولادة من منزلة، وما متع به منها قرباً، وما آله منها بعداً، فإننا لا نستغرب أن يمعن حسّاده في العمل ضده، ولكننا لا نستغرب أيضاً أن يكون ابن زيدون قد فعل ما يمكن لحسّاده من العمل ضده.

ولم يكن من اليسير على ابن زيدون أن يلزم بيته على نحو ما أمر. فالرجل الديناميكي المتحرك الفعّال تثير (الإقامة الجبرية) فيه من الآلام والقلق الكثير. ولذلك فإننا نراه يرحل عن قرطبة

إلى إشبيلية إلى بلاط المعتضد بن عباد (٤٣٣ ــ ٤٦١/١٠٤٢ ــ ١٠٦٩) التجأ ابن زيدون إلى إشبيلية سنة ٤٤١. وقد ظل فيها زهاء عشرين سنة، إلا فترة قصيرة عاد فيها إلى قرطبة لما احتلها المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية. وكانت وفاة ابن زيدون سنة ٤٦٣ / ١٠٧١[1].

٢ ــ المكتبة الجغرافية العربية والأندلس

إن الناحية التي نود أن نتحدث عنها في هذا البحث المقتضب عن الأندلس في عصر ابن زيدون تقتصر على بعض الملاحظات الجغرافية والاقتصادية عن تلك الفترة. وفي سبيل ذلك يجدر بنا أن نوضح للقارىء المصادر التي يمكن الاعتماد عليها في هذه الدراسة.

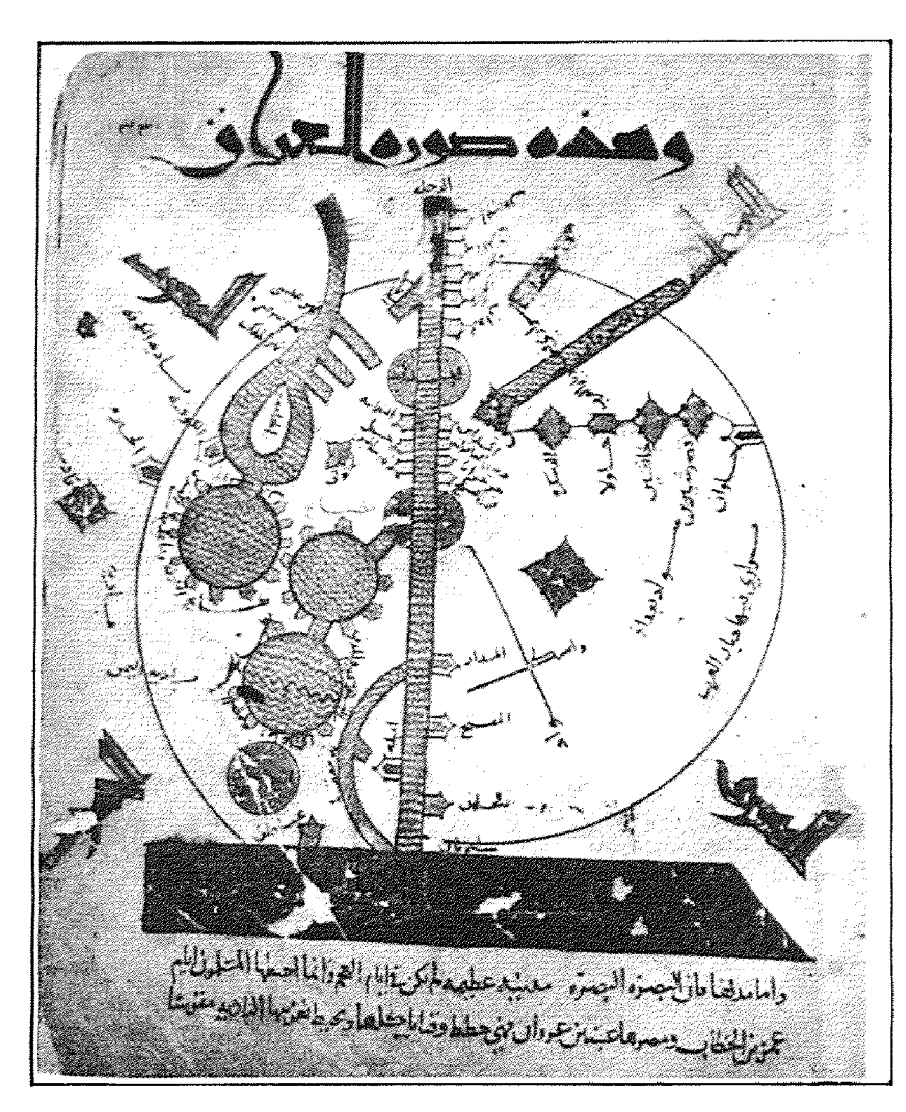
وفي طليعة هذه المصادر الكتب الجغرافية. وهذا الأمر يقتضي منا الإشارة إلى المكتبة الجغرافية العربية بعامة، كي نتعرف إلى أهميتها بالنسبة إلى بحثنا.

ويمكن القول إجمالاً أن الكتابة الجغرافية عند العرب، في العصور الأولى، اتخذت ثلاثة اتجاهات هي: (الجغرافية الرياضية) ثم (جغرافية المسالك) ثم (الجغرافية البلدانية).

كان الاتجاه الأول في التأليف باللغة العربية نحو الجغرافية الرياضية، دون الوصفية أو البلدانية. وظهر هذا بشكل خاص في نوعين من المؤلفات. الأول الكتب المتعلقة بصورة الأرض والثاني كتب الازياج. وعندنا ثلاثة يمثلون كتاب النوع الأول وهم: (١) محمد بن موسى الخوارزمي (توفي بعد ٨٤٧/٢٣٢) الذي وضع كتاب (صورة الأرض) بعد وفاة الخليفة المأمون، إلا أنه غلب عليه شكل الزيج. والكتاب في واقع الأمر ترتيب منظم جديد لكتاب بطليموس لكنه أدق منه. وزيج الخوارزمي أي جداوله الفلكية تحتوي على ٥٣٧ موضعاً مبينة أطوالها وعروضها وهي واردة في جداول أربعة: المدن والجبال والجزر والأنهار، وقد رسم الخوارزمي خرطاً فيها أصالة وابتكار، كما يبدو من الخارطة التقريبية التي رسمها للنيل. (٢) يعقوب بن إسحق الكندي الفيلسوف (تو ٢٦٠ / ٨٧٤) وقد وضع (رسم المعمور من الأرض) و (رسالة في البحار والمد والجزر). (٣) سهراب الذي ألّف كتاب الأقاليم السبعة (الذي كتب بين عامي ٢٨٩ و ٣٣٤ / ٩٠٢ و ٩٤٥). وقد أضاف سهراب إلى ما أخذه من بطليموس والخوارزمي مادة مستفادة من مصادر عربية، لعل أكثرها كان تقارير رسمية عن نواح من الدولة الإسلامية، مثل وصف المؤلف لشبكة قنوات بغداد ووصفه لدلتا النيل.

أما المؤلفون الذي عنوا بالنوع الثاني أي الازياج فكثيرون منهم: (١) أبو عبد الله محمد بن جابر البتاني (توفي ٣١٧ / ٩٢٩) صاحب الزيج المعروف باسم (الزيج الصابىء) وهي جداول فلكية، لكن الكتاب يحوي مقدمة وافية في أكثر من ستين فصلاً تعالج مسائل الفلك جمعاء. (٢) أبو الحسن ابن يونس (توفي ٣٩٩ / ١٠٠٩) فلكي البلاط الفاطمي في القاهرة صاحب (الزيج الحاكمي الكبير). (٣) أبو الريحان البيروني (توفي ٤٤٠ / ١٠٤٨) صاحب المؤلفات الكثيرة منها (القانون المسعودي) و (تحديد نهاية الأماكن لتصحيح مسافات المساكن) و (التفهيم لأوائل صناعة التنجيم) و (الآثار الباقية في القرون الخالية)[2].

وبين أواسط القرن الثالث (التاسع) وأواخر القرن الرابع (العاشر)، ظهر في محيط الجغرافية العربية عدد من الكتب يتصف بالأصالة على العموم مع العلم أن آثار المدرسة اليونانية تظهر في بعض هذه الكتب. والمؤلفون الذين ننوي أن نتحدث عنهم في هذا المثال هم، على ترتيب تاريخ وفياتهم: ابن خرداذبه (توفي حول ٢٧٢ / ٨٨٥) واليعقوبي (توفي حول ٢٨٨ / ٨٩١) وابن رسته (توفي بعد ٢٩٠/ ٩٠٣) وقدامة بن جعفر (توفي بعد ٣١٠ / ٩٢٢) والبلخي (٣٢٢ / ٩٣٤) والجيهاني (كتب قبل ٣١٠ / ٩٢٢) والاصطخري (كتب بين ٣١٨ و ٣٢١ / ٩٣٠ و ٩٣٣) وابن حوقل (توفي في النصف الأول من القرن الرابع (العاشر) والهمداني (توفي ٣٣٤ / ٩٤٥) والمقدسي (توفي بعد ٣٧٨ / ٩٨٨).



□ خريطة قديمة للعراق، رسمها الاصطخري العالم الجغرافي الشهير. (القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد).

ومن الممكن النظر في ما خلفه هؤلاء المؤلفون من خلال مجموعات، فابن خرداذبة واليعقوبي وابن رسته وقدامه هم من طبقة المؤلفين الكتاب الذين كانوا يشغلون وظائف في الدولة. ويمكن أن يضاف الجيهاني إليهم. ويكون البلخي والاصطخري وابن حوقل مجموعة ثانية. وينفرد المقدسي عن هؤلاء بميزات خاصة سنعرض لها فيما بعد. وثمة مؤلف آخر هو الهمداني سنتحدث عنه منفرداً لأنه خص صقعاً واحداً، هو جزيرة العرب، باهتمامه.

ونحن إذا أخذنا المؤلفين الكتّاب (أي المجموعة الأولى) وجدنا أنهم كانوا موظفين في الدولة. فقد كان ابن خرداذبه صاحب البريد في إقليم الجبال من فارس. واليعقوبي كان من موظفي الدولة، وكان جده الأعلى حاكماً لأرمينية كما أنه كان والي مصر. وكان جده ووالده من عمال البريد الكبار. ومعنى هذا أن الرجل نشأ في بيت وظائفي وكان هذا ييسر له الاطلاع على أمور هامة. وكان ابن رسته في خدمة الدولة، وإن لم تصل إلينا أخبار كافية عن طبيعة المنصب الذي شغله. أما قدامة بن جعفر فقد كان يتولى الخراج.

والجيهاني وزر للسامانيين. ومن هنا نرى أن الناحية التي عني بها هؤلاء الكتاب تتصل بحاجات الدولة اتصالاً وثيقاً. فقد تحدث كل منهم، ولو على درجات متفاوتة، عن الطرق وخاصة طرق البريد، أو ارتفاع الخراج في الجزء من البلاد الذي كان يعرفه، أو اهتم بالطرق البحرية والتجار الذين يحملون بضائعهم عبرها ونوع المتاجر التي يحملون.

هذه الكتب الثلاثة: مسالك ابن خرداذبه وأعلاق ابن رسته وخراج قدامة بينها ترابط يكاد

يكون عضوياً في بعض الحالات، فضلاً عن أنها كلها تعتمد وثائق أصلية رسمية. فابن رسته كثير الشبه بابن خرداذبه تقسيماً وتنظيماً، وإن كان قلم ابن رسته أيسر تعبيراً. وكتاب قدامة يمكن اعتباره تتمة لكتاب ابن خرداذبه.

والمجموعة الثانية من مؤلفي الجغرافية العربية في إبان نضجها تشمل: البلخي والاصطخري وابن حوقل. والأولان من فارس والثالث من نصيبين في الجزيرة. والارتباط بين مؤلفات هؤلاء النفر قوي إلى حد أن الباحثين في هذا الموضوع لم يستطيعوا تبين الاتصال تماماً، وإن كانوا قد استطاعوا الاهتداء إلى الخطوط العريضة فيه.

هؤلاء المؤلفون الثلاثة كانوا أهل سفر، وإن اختلفت رقع أسفارهم اختلافاً بيناً. فالبلخي من بلخ وقد قضى ثماني سنوات في بغداد حيث اتصل بالفيلسوف الكندي، وبسبب ذلك انتقل اهتمامه من الشريعة إلى قضايا العلم والفلسفة. وقد حج. ولما عاد إلى بلخ لم يخرج منها فيما بعد. لذلك فإن الذي يعرفه معرفة مباشرة كان قليلاً. ولأن كتابه فقد، فنحن لا ندري على وجه الدقة حتى ما هي الأجزاء التي وضعها. أما الاصطخري فقد زار ما وراء النهر وإيران وجزيرة العرب والشام ومصر. ومن ثم فما كتبه عن هذه البلاد مبني على المشاهدة. أما ما ذكره عن المغرب فهو منقول عن غيره. وكان ابن حوقل أوسع الثلاثة رقعة أسفار. فقد احترف التجارة، وتنقل في شمال إفريقية والأندلس وجنوب إيطالية كما زار إيران وجزء من الهند وكان يعرف الجزيرة والعراق معرفة المواطن. وثمة من الباحثين من يرى أن ابن حوقل كان داعية سياسياً للفاطميين وإلى هذا يعزى هذا التنقل الذي كان يقوم به والأسفارالواسعة التي حملته إلى أبعد الأماكن. وعلى كل فقد دوّن ابن حوقل أخبار مشاهداته.

ويتفق الثلاثة في أنهم اقتصروا في الغالب على بلاد الإسلام أو جزء منها. وباستطاعتنا أن نعرف تماماً ما كتبه كل من الاصطخري وابن حوقل بسبب وجود الكتابين. فالاصطخري فصل الأجزاء الشرقية من العالم الإسلامي وأضاف شيئاً عن المغرب سماعاً. أما ابن حوقل فقد زار المناطق كلها فكانت كتابته عن مشاهدة.

والمقدسي، أو المقدسي البشاري كما يسمى أحياناً، من مواليد مدينة القدس (ويقال إنه ولد في الرملة من أعمال فلسطين سنة ٣٣٥ / ٩٤٦). وكان جده لأبيه أبو بكر من مشاهير البنائين (ويبدو أن أباه كان أيضاً بناءاً) وهو الذي بنى ميناء عكاء لابن طولون حاكم مصر. ولعل هذا هو الذي جعل مؤلفنا يهتم بالبناء والمعمار في بعض ما يصف. كان ولوعاً بالأسفار، ونحن إذا استثنينا الأندلس والسند وسجستان وجدنا أن الرجل زار أصقاع العالم الإسلامي الباقية جميعها. وقد وضع كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) سنة ٣٧٥ في مدينة شيراز وكان له من العمر أربعون عاماً. ولعله عاد إلى الكتاب فنقّحه أو أضاف إليه. فقد وجدت للكتاب نسختان قدمت إحداهما إلى آل سامان وقدمت الثانية (بعد ذلك بثلاث سنوات) إلى الفاطميين في مصر. وبين النسختين اختلاف طفيف.

بعد توضيح الأسس التي بنى كتابه عليها وذكر البحار والأنهار يقدم للقارىء الأماكن المتفقة اسماً والمختلفة صقعاً وينتقل إلى الخصائص في الأقاليم فيجملها. ويشفق على الفقهاء من قراءة كتابه بكامله فيختصر لهم باباً خاصاً هو خلاصة للكتاب. وبعد تعداد الأقاليم الأربعة عشر يأخذ كلاً منها على حدة فيفصل كوره وقصباته ثم يعود فيجمله بشكل عام من حيث اقتصاده وإدارته وصفات أهله وما إلى ذلك.

أما وقد عرضنا لجغرافيي القرن الرابع (العاشر)، فإنه حريّ بنا الآن أن نتناول خرطهم أو صورهم التي زينوا بها كتبهم. ولنذكر أنفسنا قبل كل شيء بأن الجغرافيين العرب الذين كتبوا في الجغرافية الرياضية كانوا يرسمون خرطاً تظهر فيها خطوط الطول والعرض ويقسمون العالم إلى أقاليمه السبعة، وكانوا بطبيعة الحال متأثرين ببطليموس وغيره. أما جغرافيو القرن الرابع (العاشر) فقد كانت لهم خطة تختلف تماماً. وقد ذكرنا قبلاً أن كتاب البلخي ضاع منه كما فقدت أكثر خرطه (أو صوره). ولكن مما حصلنا عليه من خرط (أو صور)



□ جزء من صندوقة المجوهرات، مصنوعة من العاج من العصر الأموي في الأندلس.

الاصطخري وابن حوقل والمقدسي وغيرهم، ومن الأخبار التي نقلت لنا عن مؤلفين آخرين اضطررنا، بسبب الاختصار، إلى عدم التعرض لهم، أصبح باستطاعتنا أن نكوّن فكرة عامة عن رسمهم للخرط الكثيرة.

ونحن إذا أخذنا كتاب المسالك وجدنا أن ما ذكروه عن الأندلس كان مأخوذاً من معرفة سابقة أو عن السماع، ويكاد يقتصر ما نحصل عليه منهم عن تلك الديار على إشارات إلى السكان ومجاري المياه والطرق. ويدلنا هذا على أن الاهتمام عند هؤلاء المؤلفين كان منصباً على مشرق الدولة العربية الإسلامية وما كان يقع في إطار الخلافة العباسية. أما الأندلس فلم تكن موضع اهتمام خاص عندهم.

على أن هذا الأمر يتغير تماماً عندما ننتقل إلى الجغرافيين البلدانيين وبخاصة الاصطخري وابن حوقل والمقدسي من المشارقة. وابن حوقل هو الوحيد، كما ذكرنا، الذي زار الأندلس وكتب نتيجة معرفة مباشرة. وسنتحدث عما تعلمناه عن الأندلس من هؤلاء المؤلفين فيما بعد.

٣ ـ الجغرافيون المغاربة[٣]

والذين نود التحدث عنهم هنا هم ثلاثة أولهم أحمد الرازي (توفي ٣٤٤ / ٩٥٥) والثاني أبو عبيد البكري (توفي ٤٨٧ / ١٠٩٤) في قرطبة والإدريسي (المتوفى سنة ٥٦٠ / ١١٦٥).

يقول حسين مؤنس عن أحمد بن محمد الرازي:

«يعتبر أحمد بن محمد الرازي أبا الجغرافية والتاريخ في الأندلس في آن واحد، فقد أخذ عن أبيه محمد بن الموسى الميل إلى التاريخ والاهتمام بالتأليف فيه، وزاده اهتماماً بهذا الفن شيخه قاسم بن أصبغ البياني، وقد رأينا عنايته بالتاريخ واشتهار أمره به في الأندلس، ورأينا كيف انصرف مع الوليد بن خيزران إلى ترجمة كتاب هروشيش وكيف قاما بها على ذلك النحو الفريد. فإذا ذكرنا أن هذه الترجمة لم تكن إلا جزءاً يسيراً من ذلك النشاط الثقافي الذي زخرت به قرطبة أيام الحكم المستنصر، تصورنا البيئة العلمية الأندلسية في ذلك العصر: بيئة تأليف وترجمة وتجديد وطلب دؤوب للعلم والمعرفة مما جعل قرطبة خلال القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي مركزاً من مراكز القيادة والإشعاع للحضارة في العالم أجمع.

في هذه البيئة المواتية نشأ أحمد بن محمد الرازي، وكان بطبعه مهتماً بأحوال الدنيا وأخبار البشر، فانصرف إلى الجغرافية والتاريخ انصرافاً تاماً أرسى به أسس هذين العلمين في بلاده، فلا تقتصر أهمية عمله في هذا الباب على ما كتبه بنفسه، وهو كثير، بل تشمل الحركة التي قادها والأسس التي وضعها وسار عليها من أتى بعده. وستكون كتبه المعين الذي سيستقي منه كل مؤرخي الأندلس وجغرافييه فيما بعد، والمدرسة التي سيمضي التأليف والجغرافية في الأندلس على أصولها إلى آخر أيام الأندلس الإسلامي».

تناول أحمد بن محمد الرازي الجغرافية على أنها علم متمم للتاريخ، وجغرافيته الباقية بين أيدينا هي في الغالب مقدمة لكتابه (أخبار ملوك الأندلس) لأن القطعة الباقية منها في ترجماتها إلى البرتغالية والإسبانية القديمتين تستطرد بعد وصف الأندلس إلى الكرم عمن ملكه ومن دخله من الشعوب قبل الفتح العربي. ولا شك في أن النقول الجغرافية الكثيرة التي نجدها في نفح الطيب متصلة بقرطبة إنما هي من كتاب أحمد الرازي في صفة قرطبة. أما كتاب (أعيان الموالي بالأندلس) فيغلب أنه كان كتاب تراجم لا يضم مادة جغرافية كثيرة، وإن كنا لا نستبعد أن تكون فيه هذه الاستطرادات الجغرافية المعروفة في كتب التراجم المطولة.

(سلك أحمد الرازي في جغرافية الأندلس طريقاً لا نجد له شبيهاً فيما نعرف من كتب الجغرافية السابقة عليه في المشرق، بدأ بتحديد موقع شبه الجزيرة من الأقاليم دون إسراف في ذلك، فاكتفى بالقول بأنه في الإقليم الرابع، في حين أننا سنجد علي بن سعيد فيما بعد يجعل بعض الأندلس في الإقليم الرابع وبعضه في الخامس، ويجعل له حظاً في السادس أيضاً. ثم تحدث الرازي بعد ذلك عن هيأة شبه الجزيرة، فقال إنها هيئة مركنة ذات ثلاثة أركان (أي مثلثة)[٤].

□ جدول فلكي

وقد فقد كتاب الرازي عن الأندلس. ولكن لدينا ترجمتان عنه، واحدة برتغالية صنعها جل بريس (Gil Perez) بأمر من ملك البرتغال دنيس (١٢٧٩ ــ ١٣٢٥) والأخرى إسبانية. وقد حاول ليفي بروفنسال أن ينبش جغرافية الرازي من أولئك الذين نقلوا عنه من جغرافي العرب مثل البكري والإدريسي وياقوت والحميري وغيرهم، ونشر ترجمة فرنسية لهذا الذي جمعه[٥].

والجغرافي التالي هو أبو عبيد الله البكري وهو أندلسي المولد والنشأة. ولد في ولبة في أوائل القرن الخامس (الحادي عشر) وانتقل مع أبيه إلى قرطبة وهو في مطلع شبابه ثم انتقل إلى المرية ثم إلى إشبيلية حيث قضى نحبه (٤٨٧ / ١٠٩٤). وللبكري مشاركات في اللغة والأدب وما إلى ذلك على نحو ما كان عليه أهل العلم في العصور الخوالي. كما أن له كتاباً في النبات. أما البكري الجغرافي فمعروف بكتابين: (معجم ما استعجم) و (المسالك والممالك).

و (معجم ما استعجم) هو أول معجم جغرافي في تاريخ التأليف الجغرافي عند العرب. فالدكتور حسين مؤنس، الذي درس تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس يقول عنه: (فإن التأليف في ذلك الفن (الجغرافية) اقتصر حتى الآن على البلدان والمسالك والممالك. أما أن يفكر عالم في وضع معجم أبجدي لأسماء المواضع فهو حدث يعين ميلاد نوع جديد من التأليف الجغرافي عند العرب، نوع سيتطور ويزهو حتى يصل إلى ذروته في معجم ياقوت المعروف.

وقد عرفنا المؤلف بكتابه بقوله (هذا كتاب معجم ما استعجمت ذكرت فيه ــ إن شاء الله ــ جملة ما ورد في الحديث واخبار والتواريخ والأشعار من المنازل والديار والقرى والأمصار والجبال والآثار والمياه والآبار والدارات والحرار،

منسوبة ومبوبة على حروف المعجم مقيدة ــ فلما رأيت ذلك قد استعجم على الناس، أردت أن أفصح عنه، بأن أذكر كل موضع مبين البناء، معجم الحروف حتى لا يدرك فيه لبس أو تحريف).

وللبكري كتاب آخر في الجغرافية هو (المسالك والممالك). والكتاب لم ينشر كاملاً بعد، بل لم تجمع كل مادته في مكان واحد، ولذلك فالحديث عنه يظل ناقصاً. وقد أفرط المؤلف في المقدمات التي لا علاقة لها بالجغرافية ثم انتقل إلى مقدمة عامة لخص فيها المعرفة الجغرافية إلى عصره. وبسبب دقته وصفاء أسلوبه ومقدرته على التنظيم فإنه وضع بين أيدي قرائه صورة واضحة للمعرفة الجغرافية إلى أيامه. وفصله عن الأنهار قيم. فلما انتهى من المقدمات أخذ المماليك بالترتيب بادئاً من الهند. فهو يصف المملكة، أي القطر، عامة ثم ينتقل إلى مسالكها. وحديثه عن هذه الأقطار مفصل إذ يورد بعض التاريخ وخصائص أهلها وعاداتهم. ولا يقتصر البكري على ديار الإسلام، شأن جغرافيي القرن الرابع (العاشر)، بل يتناول أقطار أوروبية بالوصف الدقيق. ويجب أن نذكر أن البكري، مثل عدد من مؤلفي كتب الممالك والمسالك، تختلف معالجته للأقطار بنسبة ما يحصل عليه من معلومات ومصادر. فيطيل حيث يقع على التفاصيل، ويختصر في غير ذلك، ولكنه دقيق في تخيّره المعلومات وتنظيمها في كل حال.

إلا أن ما وضعه البكري عن الأندلس مفقود إلا أجزاء صغيرة لا تسمن ولا تغني من جوع، ولذلك فنحن إذن لا نفيد عن الأندلس كما كنا نحب من جغرافي له مثل البكري من حيث تصوره للواقع وتقصيه للحقائق وتفصيله للمسائل.

ولننتقل الآن إلى المؤلف الذي يعتبر الكثيرون عمله ذروة التأليف الجغرافي عند العرب وهو الشريف الإدريسي (توفي ٥٦٠ / ١١٦٥ أو قبل ذلك بقليل). ومع أن الإدريسي شغل الباحثين طويلاً ولا يزال يشغلهم، فإن معرفتنا به لا تزال محدودة.* ونحن نحيل القارىء الذي يريد أن يتعرف إلى القضايا المختلفة المتعلقة بحياته وكتابه إلى الفصل الطويل الممتع الذي كتبه الدكتور حسين مؤنس في كتابه (تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس) المنشور في مدريد سنة ١٣٨٦ (١٩٦٧) ص١٦٥ ــ ٢٨٠ فهو أحدث ما كتب في الموضوع ومن أفضل ما وضع فيه.

ولد الشريف الإدريسي في سبتة بالمغرب سنة ٤٩٣ (١١٠٠). وفي شبابه خرج من تلك البلاد سائحاً متجولاً في المشرق وقد زار مصر وآسية الصغرى، وليس ما يدل على أنه زار ديار الشام مثلاً. ومن الواضح أن الإدريسي أقام وقتاً طويلاً بقرطبة وتلقى العلم بها، ومن الواضح أن هذا جاء بعد رحلته إلى المشرق. ويرى البعض أنه زار لشبونة وسواحل فرنسا. بل لعله وصل انكلترا. والمهم أن الشريف الإدريسي وفد على صقلية سنة ٥٣٣ (١١٣٩) ونزل في ضيافة ملكها روجار الثاني في بلرمو. وهناك وضع كتابه نزهة المشتاق.

والباحثون على أن الإدريسي اطّلع على ما كتبه الجغرافيون العرب من قبل سواء في ذلك ما نقلوه عن بطليموس أو ما وضعوه مستقلين منفردين. وقد درس حسين مؤنس مصادر الإدريسي ومنهجه في العمل فخلص من ذلك إلى أن الرجل:

«بعد أن قرأ ما قرأ من كتب الجغرافية والفلك، وبعد أن ساح في البلاد على قدر ما استطاع، بدأ يرتسم في ذهنه تصور جديد لجغرافية الأرض ومنهج جديد بكتابتها، تصور يختلف تمام الاختلاف عما سبقه إلى ذلك الحين: تصور عام يشمل الأرض كلها على أنها كل واحد ما فيه جدير بالوصف والتحقيق، فلا يقتصر التحقيق على حوض البحر الأبيض كما عند بطليموس أو على عالم الإسلام كما عند معظم جغرافيي العرب إلى ذلك الحين، تصور جغرافي خالص لا يختلط بالتاريخ هذا الاختلاط الذي جعل الكثير من كتب الجغرافية كتب تاريخ أيضاً كما نجد عند أبي عبيد البكري، ولا يخلط بين الحقيقة والأسطورة كما نجد عند الهمداني. تصور جغرافي علمي خالص. وبناء على هذا التصور رسم منهجه: منهج مشاهدة وقياس ومقارنة وربط بين الأجزاء بعضها ببعض ومراعاة النسب بينها، وعمل صورة كاملة للأرض ثم كتابة وصف كامل لهذه الصورة يشمل وصف

هيئتها العامة وتقسيمها بعد ذلك إلى مناطق يستقصى الكلام عنها في تفصيل ويجمع عنها كل ما تيسر له من المعلومات، فما شهده بنفسه أثبته كما رآه، وما لم يشهده سأل عنه أهله ومن رحلوا إليه وساروا في طرقه أو أبحروا في أمواجه أو اشتغلوا بالتجارة فيه. ويستكمل ذلك بما عسى أن يجده في كتب الجغرافية التي تتيسر له.

وليس معنى هذا أن الإدريسي فكر في هذه العناصر كلها وهو يرسم منهجه الجغرافي، فإن تصور الجغرافية على هذا النحو لم يولد إلا بعد عصره بقرون، ولكنه على أي حال فكر في منهج جديد أو بتعبير أدق: سار في طريق جديد، هو الطريق الذي وصل بالجغرافية إلى ما هي عليه اليوم، وتطلب منه السير في ذلك الطريق عناصر لم يجدها فيما بين يديه من الكتب، لا مصورات عامة أو جزئية دقيقة ولا قياسات يمكن التعويل عليها، ولا أوصاف للنواحي يمكن الاعتماد عليها، ولا تفاصيل موثوق فيها كل الثقة عن أجناس البشر ومصادر شروتهم وميادين نشاطهم وإنتاجهم. وكان عليه أن يبدأ هو بذلك، فقرر أولاً أن يرسم صورة شاملة للأرض حتى يسير على خطة واضحة في عمله، ثم قسم هذه الخريطة إلى أقسام صغيرة، ومضى يبحث المعلومات الموجودة عن كل قسم ويحققها بسؤال من يعرفونها ومقارنة أقوال بعضهم ببعض واستخراج شيء يمكنه الاطمئنان إليه من ذلك كله»[٦].

●

الهوامش

(١) راجع: شوقي ضيف **ابن زيدون** (بيروت، ١٩٥٣)، كامل كيلاني وعبد الرحمن خليفة **ديوان ابن زيدون** (القاهرة، ١٣٥١/١٩٣٢). علي عبد العظيم **ابن زيدون** (القاهرة، ١٩٥٥، EI 2 مادة ابن زيدون.

(٢) راجع: اغناطيوس كراتشوفسكي **تاريخ الأدب الجغرافي العربي** القسم الأول (القاهرة، ١٩٦١؟) في الفصلين ٢ و ٣. ومادة Djughafiya في E I.

(٣) لن نتحدث عن جميع الجغرافيين المغاربة أو الأندلسيين، ولكننا سنقتصر على البعض. ومن شاء الاطّلاع على دراسة وافية مستفيضة فعليه بكتاب حسين مؤنس **تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس** (مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد ١٣٨٦/١٩٦٧).

(٤) حسين مؤنس ص ٥٦ و ٥٩ ــ ٦٠.

(٥) El Levi-Provençal «La Description de l'Espagne de Razi» in **Al-Andalus** Vol. XVIII (1953). pp. 51-108.

(٦) حسين مؤنس ص ٢٠٢ ــ ٢٠٤.

● إن طريق الاستقلال يجب أن تغسله الدماء.

«غاندي»

● إضاعة الفرصةُ غصة.

«الإمام علي»

● إذا كنت قد نبذت كل أسباب الرفاهية، وإذا كنت قد أبعدت عني جميع أقاربي وأصدقائي، وإذا كنت أعيش عيشة الفاقة، فذلك لأنني أعتقد أن رئاسة الشعوب ليست تجارة ومنصباً، بل خدمة وتضحية.

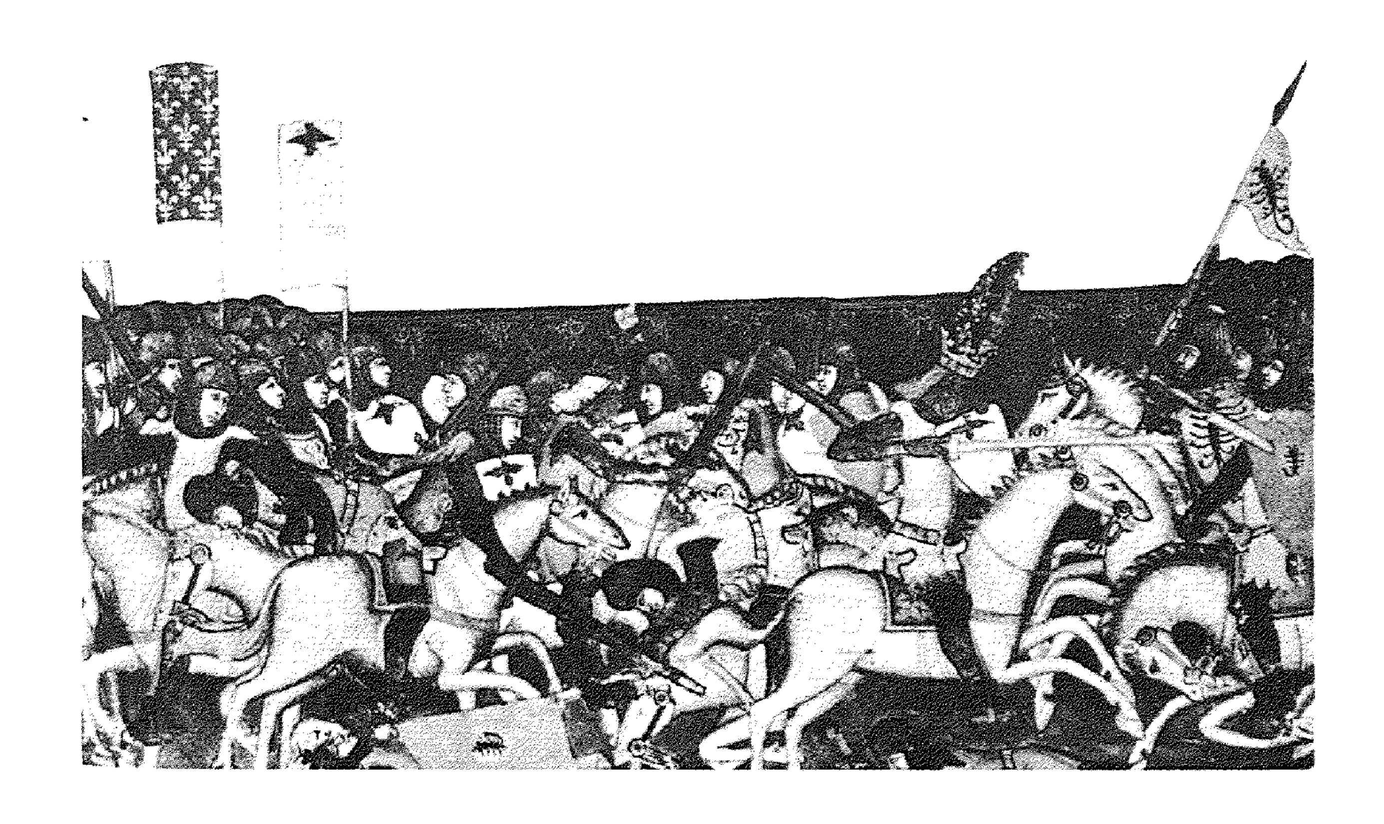
«الدكتور سوكارنو»
رئيس الجمهورية الأندونيسية

أرناط.. الفارس اللصّ

نشأته، حياته، غزواته، ودوره في تهيئة الظروف لمعركة حطّين

د. برهان العابد

"الجزء الثاني"



١٢ ــ تاريخ العرب والعالم



ففي صيف عام ١١٨١ وأثناء فترة السلام بين صلاح الدين والإفرنج ودون سابق إنذار توجه أرناط على رأس قوة من الخيالة والمشاة إلى تيماء في قلب الجزيرة العربية وهي واحة ومركز تجاري على الحدود بين الحجاز ونجد في منتصف الطريق بين الأردن والمدينة المنورة، حيث حاول كعادته نهب المنطقة ويقول ابن الأثير: «وعزم على السير إلى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم للاستيلاء على تلك النواحي الشريفة(٢١) وعندما وصل خبر هذه الغزوة إلى مسامع فرخشاه نائب صلاح الدين في دمشق قام بالهجوم على أراضي إمارة شرقي الأردن وأجبر أرناط على العودة والعدول عن مشروعه إلا أنه صادف وهو في طريق العودة قافلة للحجاج في طريقها إلى مكة فنهبها واعتدى عليها وعندما وصل خبر هذا الاعتداء إلى بيت المقدس أصيب الملك بودوان وحاشيته بالوجوم والذهول لأن المملكة كانت بحالة هدنة مع المسلمين وهي بأشد الحاجة إلى السلام في تلك الظروف الصعبة لذلك فقد وجه الملك إلى أرناط لوماً شديداً وطلب منه إعادة المنهوبات إلى أصحابها وإطلاق سراح الأسرى بناء على طلب السلطان ولكن أرناط لم يأبه لكلام سيده مما حدا بالملك إلى إرسال لجنة وساطة مؤلفة من الداوية والاستبارية وبعض رجال الكنيسة لمحاولة إقناعه باحترام الهدنة وإعادة ما سلبه من قافلة الحجاج ولكن أرناط لم يتراجع عن موقفه قيد أنملة، بل زاد على ذلك بأن طلب إلى اللجنة عدم التدخل بأموره مرة أخرى مما حمل الملك على الاعتراف لصلاح الدين بعجزه تجاه أرناط(٢٣).

إن هذه الحادثة إضافة لنتائجها تعد دليلاً واضحاً على تمرد بارونات المملكة الصليبية وانفراط عقد الوحدة التي بدت بوادرها حتى قبل وفاة الملك عموري بتمرد الداوية واستقلالهم بسياستهم الداخلية وهكذا فقد وضحت مقدمات انهيار المؤسسة الملكية المتربصة على عرش بيت المقدس ويؤكد رونه غروسه هذه الحقيقة بقوله: إن من يتعمق في دراسة هذه الأمور يرى أن لصوصية عام ١١٨١ تنذر بنهاية سلطة الملك قبل أن تجر بنتائجها إلى سقوط المملكة الوشيك.

لقد كان ارتكاس المسلمين لنقض الهدنة من قبل أحد أمراء المملكة الصليبية سريعاً وعنيفاً فقد ألقي القبض على ألف وخمسمائة من الحجاج الصليبيين الذين دفعت بهم عاصفة بحرية إلى شواطىء دمياط وأراد صلاح الدين استبدالهم بأسرى قافلة الحجاز كمحاولة أخيرة لإعادة السلام بين المسلمين والإفرنج فلم يفلح لأن المشكلة لا تتعلق بالملك بودوان الرابع الذي ظهر عجزه للملأ ولكن بأمير الكرك الذي أصر على عناده السابق ورفض أي حل سلمي. عندها قرر صلاح الدين التوجه إلى الشام فترك مصر في أيار ١١٨٢ وسار إلى أيله على خليج العقبة وهناك علم بأن الصليبيين يحشدون جموعهم في الكرك ويخططون لقطع الطريق عليه ومنعه من الوصول إلى دمشق. فقد دعا الملك بودوان مجلس الحرب وعكف على وضع الخطط لمواجهة السلطان فأشار عليه أصدقاء ارناط بالانتقال مع جيشه إلى الكرك واعترض ريمون الثالث أمير طرابلس وحذر من تفريغ فلسطين من المحاربين ولكن رأي جماعة ارناط انتصر وتحرك جيش المملكة لحماية الأمير الأهوج.

وبالرغم من حشد جميع قوى المملكة لم ينجح الصليبيون في قطع الطريق على صلاح الدين وبالعكس فقد تحداهم وذهب هو لملاقاتهم إذ بعد أن أرسل الأحمال والمرضى مع أخيه شمس الملوك بوري ذهب على رأس فرسانه وخرب محاصيل الأراضي القريبة من الكرك والشوبك وقطع أشجارها وأحرق مزروعاتها دون أن يتقدم لملاقاته أحد من الجموع التي أتت لتمنعه من المرور(٢٤). وفي نفس الوقت حصل ما تنبأ به ريمون الثالث إذ أن الأمير فرخشاه نائب صلاح الدين بدمشق استفاد من هذه الفرصة وقام باجتياح الجليل مما سبب صدمة قوية لسكان منطقة الناصرة لأنهم كانوا يجهلون نقض الهدنة لذلك لم يتمكنوا من الهرب والالتجاء إلى الجبال والمغارات. وبعد نهب الجليل قطع فرخشاه نهر الأردن وانتقل إلى منطقة السواد التابعة لإمارة طبريه واستولى على حصن حبس جالدك بالرغم من مناعته والدفاع عنه من قبل حامية كبيرة ويقول المؤرخ وليم الصوري بأن الفرسان

والجنود من المسيحيين السوريين رفضوا الدفاع عن الحصن واستسلموا للمسلمين وبعد الاستسلام انضموا إلى الجيش المهاجم وحاربوا في صفوفه[٢٥] ثم عاد فرخشاه إلى دمشق محملاً بالغنائم والأسلاب وفي ركابه ألف أسير وعشرون ألف رأس من الغنم[٢٦].

لقد أدرك الصليبيون الخطأ الكبير الذي ارتكبوه في عدم استماعهم لنصيحة ريمون الثالث فقد أصيبوا بنكستين إذ لم يتمكنوا من قطع الطريق على السلطان وانهزموا في الجليل وفي السواد ودفعوا ثمناً باهظاً لدعمهم الأمير اللص.

لم يكد صلاح الدين يستريح من رحلته حتى استأنف جهاده ضد الصليبيين. ويقول ابن الأثير في ذلك: لما وصل صلاح الدين إلى دمشق أقام أياماً يريح ويستريح هو وجنده ثم سار إلى بلاد الإفرنج في ربيع الأول فقصد طبريه فنزل بالقرب منها وخيّم في الأقحوانة في الأردن وجاءت الإفرنج بجموعها فنزلت على طبرية فسير صلاح الدين ابن أخيه فرخشاه إلى بيسان فدخلها قهراً وغنم ما فيها وقتل وجحف الغور غارة شعواء إلى أن يقول فلما رأى صلاح الدين ما قد أثخن فيهم وفي بلادهم عاد عنهم إلى دمشق[٢٧].

بين عام ١١٨٢ ــ ١١٨٤ قام صلاح الدين بمهاجمة إمارة الكرك بشكل شبه دائم وذلك لتحطيم شبكة الحصون القوية التي كانت تعترض مرور قوافل الحجاج والتجار وتقف مانعاً دون التنسيق بين الجيوش الأيوبية في مصر والشام كما قام جنود السلطان في نفس الوقت بالإغارة على الجليل لجر الفرنجة إلى الحرب على جبهتين وهو أمر كانوا يتحاشونه نظراً لقلة مواردهم البشرية وقد رأينا استثمار صلاح الدين لنقطة الضعف هذه عندما كان يرسل ابن أخيه فرخشاه للإغارة على الجليل بينما يكون هو في الكرك والشوبك وفي أكثر تلك الحملات كان جيش بيت المقدس يخف لمساعدة إمارة الكرك ويترك أراضي المملكة خالية من المدافعين وعرضه لغارات قوات صلاح الدين لما علم ارناط بسير صلاح الدين في نهاية عام ١١٨٢ نحو الشمال لتصفية حساباته مع البيت الزنكي قام بتحقيق خطة جهنمية تهدف للسيطرة على البحر الأحمر ومهاجمة مكة والمدينة وقطع طريق الحج في البر والبحر وضرب الإسلام في عقر داره ومن ثم الاستيلاء على عدن في الجنوب وإغلاق البحر الأحمر واحتكار الصليبيين لتجارة المحيط الهندي وربما كانت هذه الخطة الشيطانية ممكنة في عهود ملوك بيت المقدس الكبار، وعندما كانت كلمة الإسلام لا يجمعها أمير ولا سلطان ولكنها غدت مستحيلة في زمن أطبق فيه صلاح الدين فكي الكماشة المصرية السورية على المملكة الهزيلة التي يتنازع السلطة فيها ملك يحتضر وأمراء متنابذون وكنيسة برأسها بطرك يجري لاهثاً وراء ملذاته وشهواته. ولتنفيذ خطته قام رونو ببناء أسطول من السفن الخفيفة في عسقلان وربما في الكرك ذاتها ونقلها بواسطة البدو على ظهور الجمال إلى أيلة حيث جمّعها وانزلها إلى الماء وأطلق لربانها العنان في مهاجمة الشواطىء المصرية ونهب موانئها والاستيلاء على السفن الإسلامية الموجودة فيها مستفيداً من عنصر المفاجأة إذ لم تكن هذه المرافىء الصغيرة تتصور وجود أسطول فرنجي في مياهها وكانت عيذاب أول مدينة ساحلية أصابها الغزو ونهبت مستودعاتها المملئة بالمؤن والأغذية المعدة لتموين مكة والمدينة وهوجمت قافلة كانت عائدة من البلاد المقدسة.

ثم انتقل القراصنة إلى السواحل الحجازية حيث توغلوا وتابعوا مسيرتهم حتى وصلوا إلى مسافة مسيرة يوم واحد من المدينة المنورة على حد قول المقريزي[٢٨] ويذكر صاحب الروضتين بأنهم وصلوا أيضاً إلى مناطق ينبع ورابغ وهاجموا القوافل في تلك الأصقاع ونهبوها وقد تعاون البدو مع رجال ارناط وكانوا أدلاء في سيرهم نحو المدن المقدسة[٢٩].

لقد كانت سياسة العقلاء من ملوك بيت المقدس استغلال انقسامات العالم الإسلامي ومراقبة الانشقاقات في صفوف حكامه ومحاولة التدخل في أمور المنطقة كعنصر توازن بين مختلف الإمارات المتنازعة ففي ظروف كثيرة سار ملك بيت المقدس على رأس جيشه للدفاع عن حاكم مسلم ضد جار له من أبناء دينه وأقرب مثال على ذلك أتابكة حلب والموصل الذين طلبوا معونة الفرنج ضد صلاح الدين[٣٠] ولكن تهديد

ارتباط للأماكن المقدسة وحملته الدنسة أظهرت هؤلاء الفرنجة الذين كانوا مقبولين من بعض المسلمين كأعداء الداء لجميع المسلمين كما أثارت نقمة العالم الإسلامي برمته وجمعت كلمته وبعثت فيه نفس الشعور بالخطر الذي شعر به عام ١٠٩٩ عند سقوط بيت المقدس بيد غود فروا دو بويون. إن هذه الضربة المفاجئة أحدثت صحوة عامة وإحساساً بدنو الخطر لا في بلاد الشام فحسب بل في العالم الإسلامي قاطبة فقام الملك العادل حاكم مصر ونائب صلاح الدين فيها بتجهيز أسطول على وجه السرعة بقيادة الحاجب حسام الدين لؤلؤ الذي انطلق بادىء ذي بدء إلى أيله حيث أغرق السفينة التي كانت تحاصر الميناء وأسر من كان فيها وبعد ذلك جد في البحث عن الأسطول الفرنجي حتى ظفر به على الشواطىء الحجازية فاستولى على قسم منه وأغرق القسم الآخر وقتل وأسر رجاله وفرّ الباقون إلى الجبال فتتبّع أثرهم حتى قبض عليهم جميعاً فأرسل البعض إلى مكة أثناء موسم الحج حيث أخذوا إلى منى وذبحوا كما تذبح الضحايا(٣١) وأرسل من بقي منهم إلى القاهرة لتنفيذ أمر السلطان بقطع رؤوسهم بحيث لا يعود منهم مخبر يدل الكفار على عورات المسلمين كما يقول صاحب الروضتين على لسان صلاح الدين(٣٢).

لقد كان انفعال المسلمين لمحاولة الاستيلاء على الأماكن المقدسة انفعالاً هائلاً وكذلك كان رد الفعل بالنسبة لقطع طريق تجارة المحيط الهندي. إن قرصنة رونو دو شاتيون في البحر الأحمر جعلت من هذا الفارس اللص العدو الشخصي لصلاح الدين فقد استحكم الحقد بينهما لدرجة جعلت من السنوات الأخيرة لمملكة بيت المقدس مبارزة مستمرة بين الاثنين ويقول ابن شداد: أن السلطان خرج مراراً نحو الكرك سنة ٥٧٩(٣٣) لأنه كان يشعر بأن حصونها تشكل خطراً دائماً يهدد القوافل التي تروح وتجيء بين مصر والشام لذلك زحف صلاح الدين بجيشه من الشام في نهاية عام ١١٨٣ كما أتى أخوه الملك العادل على رأس جيش مصر للمساعدة في محاصرة الكرك(٣٤) وإنهاء الوجود الإفرنجي في طريق القوافل التي



□ صلاح الدين الأيوبي.

تربط بين مختلف أجزاء دولة صلاح الدين.

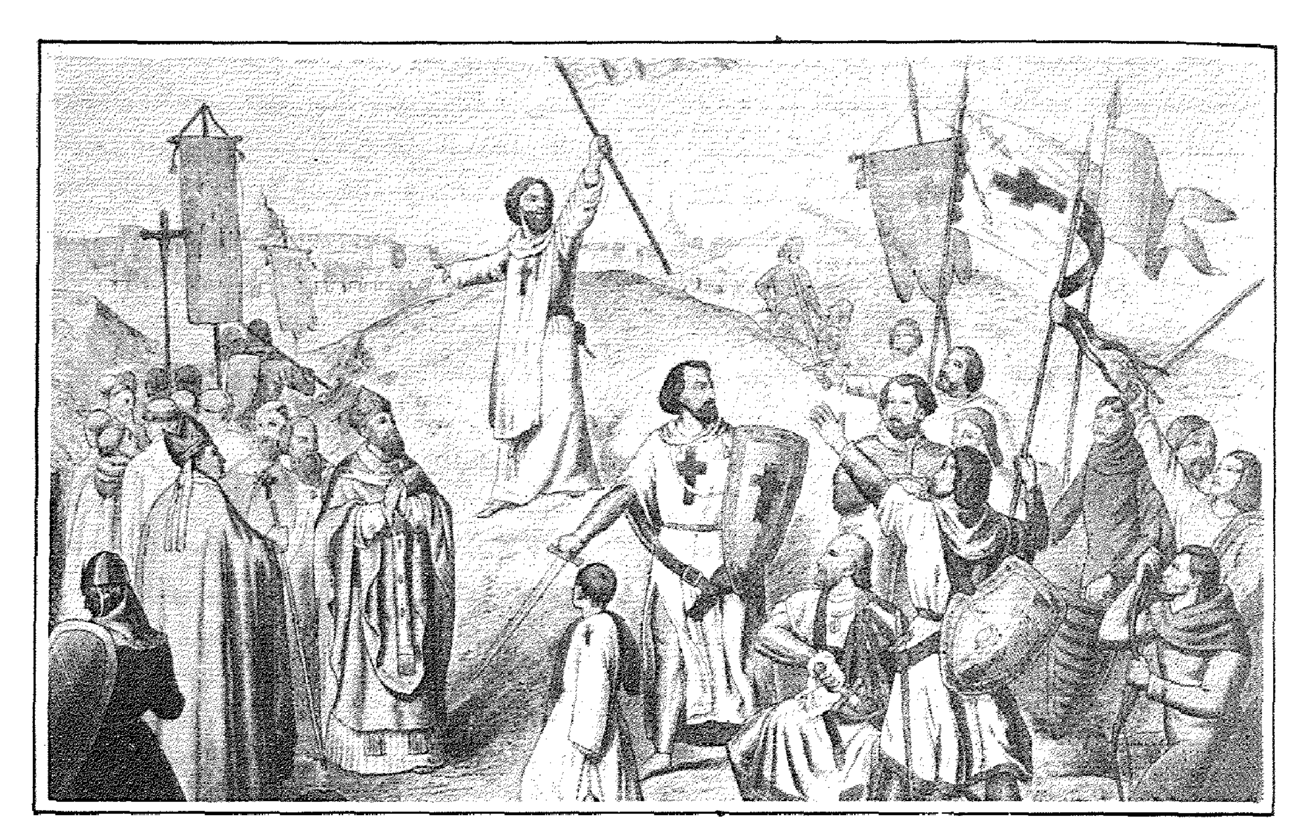
ومرة أخرى هرع الملك على رأس جيش بيت المقدس لرفع الحصار عن أمير من أمرائه المتهورين الأمر الذي حمل السلطان على فك الحصار والعودة إلى دمشق ولكن فكرة إزالة هذه الإمارة الصليبية من طريق القوافل بين دمشق والقاهرة ودمشق ومكة ظلت الهاجس الوحيد لصلاح الدين. فقد صمم على التخلص من خطرها مهما كان الثمن لذلك فقد عاد في صيف عام ١١٨٤ مرة أخرى لحصارها ولحق به ابن أخته تقي الدين عمر مع الجيش المصري(٣٥) كما انضم إليهما أمير ديار بكر نور الدين بن قره ارسلان. وأيضاً في هذه المرة جاء ملك بيت المقدس لرفع الحصار عن الكرك والشوبك وقد حاول صلاح الدين الاشتباك مع القوات الصليبية ولكنها تهربت من المعركة واكتفت بتموين المحاصرين وهي خطة حكيمة فرضها صاحب طرابلس ريمون الثالث وقد نجحت في إبعاد صلاح الدين وجعله يختار منطقة نابلس

وجنين الخالية من المدافعين مسرحا لعملياته.

إن مبادرة الملك المتكررة لمساعدة أمير الكرك اقنعت السلطان في أن التخلص من الوجود الصليبي ككل هو الوسيلة الوحيدة لتأمين استقرار وتماسك الدولة الصلاحية لذلك فقد غير خطته وأخذ في شن الهجمات المتتالية على أراضي المملكة بحيث لا يدع لها فرصة للراحة مستفيداً من الفوضى وتفرق كلمة البارونات السوريين بالنسبة للوصاية ولانتخاب ملك جديد بعد وفاة الطفل بودوان الخامس ومما زاد في رغبة صلاح الدين في التعجيل بالقضاء على الوجود الفرنجي في بلاد الشام ما لاحظه من ضعف الملك غي دولوسينيان وعدم قدرته على فرض هيبته على بارونات مملكته.

بعد قرصنة البحر الأحمر حصل ارناط على هدنة منفردة بينه وبين السلطان يؤكدها ابن الأثير ويذكر الأسباب التي حملته على طلبها إذ يقول: «كان البرنس ارناط صاحب الكرك من أعظم الفرنج وأخبثهم وأشدهم عداوة للمسلمين وأعظمهم ضرراً عليهم فلما رأى صلاح الدين ذلك قصده بالحصر مرة بعد مرة وبالغارة على بلاده كرة بعد أخرى فذل وخضع وطلب الصلح من صلاح الدين فأجابه إلى ذلك وهادنه وتحالفا»[٣٦]. وترددت القوافل من الشام إلى مصر ومن مصر إلى الشام. فلما كانت هذه السنة (نهاية ١١٨٦ وأوائل ١١٨٧) اجتازت قافلة عظيمة غزيرة الأموال كثيرة الرجال ومعها جماعة صالحة من الجند فغدر بهم وأخذهم عن آخرهم وغنم أموالهم ودوابهم وسلاحهم وأودع السجون من اسر منهم. فأرسل إليه صلاح الدين يلومه ويقبح فعله وغدره ويتوعده إن لم يطلق الأسرى والأموال. فلم يجب إلى ذلك وأصر على الامتناع فنذر صلاح الدين نذراً أن يقتله إن ظفر به[٣٧].

وبالرغم من أن الاعتداءعلى هذه القافلة يعد نقضاً للهدنة وإعلاناً للحرب فإن السلطان لم يلجأ لمهاجمة الكرك كما كان يفعل في الماضي بل اكتفى بالتهديد والوعيد تارة والتفاوض تارة أخرى. ولما لم يجد الاتصال المباشر مع رونو طلب صلاح الدين إلى الملك غي دولوسينيان التدخل باعتباره أعلى سلطة وارفعها في المملكة الفرنجية. وحاول ملك بيت المقدس إقناع رونو بإعادة الأسلاب وتسليم الأسرى ولكنه رفض وأرسل يقول لسيده: إنني مستقل في أرضي كما أنت مستقل في ارضك[٣٨]. هذا ولم يسبق أن تجرأ أحد البارونات في جميع عهود ملوك بيت المقدس من بودوان الأول حتى عموري على تحدي الملك والرد عليه بمثل هذه الوقاحة. وتدل هذه الثورة العلنية لأمير الكرك على زوال السلطة الملكية من الأيدي الضعيفة لغي دولوسينيان الذي يدين بعرشه إلى مساعده رونو دو شاتيون وحمايته لذلك فهو مجبر على تحمل غطرسته في الداخل وقبول الانزلاق نحو حرب لا مفر منها في الخارج في وقت كان فيه أكبر بارونات المملكة يقاطعون الملك. فريمون صاحب طرابلس يحمل لواء سياسة المهادنة مع السلطان وعميد عائلة ابيلان بودوان صاحب الرملة ترك إمارته وذهب ليعيش لاجئاً في إنطاكية وبوهيمون الثالث يسعى للحصول على هدنة مع صلاح الدين بعد أن أصبحت حلب من أملاك السلطان. في هذا الوقت بالذات اختار رونو دو شاتيون تحدّى صلاح الدين بعمل لصوصي يهدد باندلاع الحرب ما حمل مؤرخ إيراكل على القول: إن أخذ هذه القافلة كان سبب ضياع مملكة بيت المقدس. لقد لعب رونو دو شاتيون دوراً آخر هيأ الظروف لهزيمة حطين وخروج الصليبيين من بيت المقدس الا وهو إضعافه للسلطة الملكية بتمرده الدائم عليها فبعد إغارته على الحجاج أثناء عودته من حملة تيماء رفض الامتثال لأوامر الملك بودوان الرابع عندما طلب إليه إعادة المنهوبات التي استولى عليها وإطلاق سراح الأسرى المسلمين بناء على طلب السلطان ناسياً بأن الملك هو الذي زوجه وريثة إمارة الكرك ونصبه أميراً على شرق الأردن. كما تمرد مرة أخرى على سلطة غي دو لوسينيان بعد هدنة ١١٨٥ وغذى الانقسام الذي حصل بالمجتمع الصليبي وأدى إلى صراع بين الفرنسيين المولودين في فرنسا والفرنسيين المولودين في سورية. وشكل الحزب الذي يتألف منه ومن جيرار دو ريدفور الأستاذ الأكبر للداوية وبطرك بيت المقدس المعروف بانغماسه بالحياة الدنيوية وعلاقته المشبوهة بالملكة الام إينيس دو كورتني. وكلهم معروفون



□ بوادر الحملة الصليبية الأولى، عند وصولها إلى مشارف «القدس».

بـانسيـاقهم وراء مصـالحهـم الشخـصيـة وبمحاربتهم للجناح المعتدل الذي يضم ريمون الثالث صاحب طرابلس حليف السلطان وبودوان صاحب الرملة عميد عائلة إيبلان وغيرهم من البـارونات السـوريين الذين حضـروا اجتماع نابلس وحاولوا تنفيذ وصية الملك بودوان الرابـع قبل وفاته وإنقاذ المملكة من المؤامرة التي كانت تهدف لتنصيب ملك تافه ضعيف يأتمر بأمـر الحزب الذي يتزعمه رونو دو شاتيون المعروف بتهوره وبمغامراته التي جـرّت المصائب عـلى الصليبيين في الشرق.

في أوائل عام ١١٧٨ نفض صلاح الدين يده من أي أمل في بقاء الطريق آمنة وسالكة بين دمشق والقاهرة ومكة لذلك فقد عاد إلى دمشق وأخذ في إرسال الكتب والوفود والدعاة إلى كل أمرائه في مصر والعراق والجزيرة وعواصم الشام يدعوهم للاستعداد للجهاد. فاستجاب الجميـع استجابة منقطعة النظير إذ توالى وصول الجيوش المصرية والشرقية والحلبية والديار بكرية حتى تـجمـع تـحت أمـرة السـلطان من القـوات ما لم يتجمـع مثلها في أي وقت من الأوقات لأن الجهاد كان مطلباً من مطالب العالم الإسلامي الذي شعر بدنو الخطر الفرنجي بعد قرصنة البحر الأحمر والذي كان يلاحق سير الاستعداد لمعركة الجهاد ويطلب من صلاح الدين أن يثبت عملياً بأنه حامي أرض المسلمين والمدافـع عن البيت العتيق.

لذلك فقد غادر دمشق في ٣ آذار عام ١١٨٧، وسار إلى مكان التجمـع التقليدي وهو رأس الماء حيث ترك ابنه الملك الأفضل وأوكل إليه مهمة استقبال القوات الكردية والتركية والعربية التي كانت تصل تباعاً. أما هو فقد سار إلى بصرى جريدة والسبب في ذلك ما ورده من أخبار تدل على أن البرنس ارناط يستعد للاعتداء عـلى قافلة الحـج وقطـع الطريق على المعسكر المصري وكان بين الحجاج ابن أخته حسام الدين عمـر بن لاجين وابن أخت السلطان.

في الوقت الذي كان فيه المسلمون يستعدون لاجتياح المملكة الصليبيّة وصلت الخلافات بين ملك بيت المقدس وريمون الثالث إلى درجة تنذر بحرب أهلية[٣٩] إذ أن غي دو لوسينيان بناء على اقتـراح العـدو التقليـدي لريمـون جيـرار دو ريدفور قرر السير إلى طبرية وحصّارها ولكن تدخل باليان دبيلان وتحذيره من نتائـج عمل

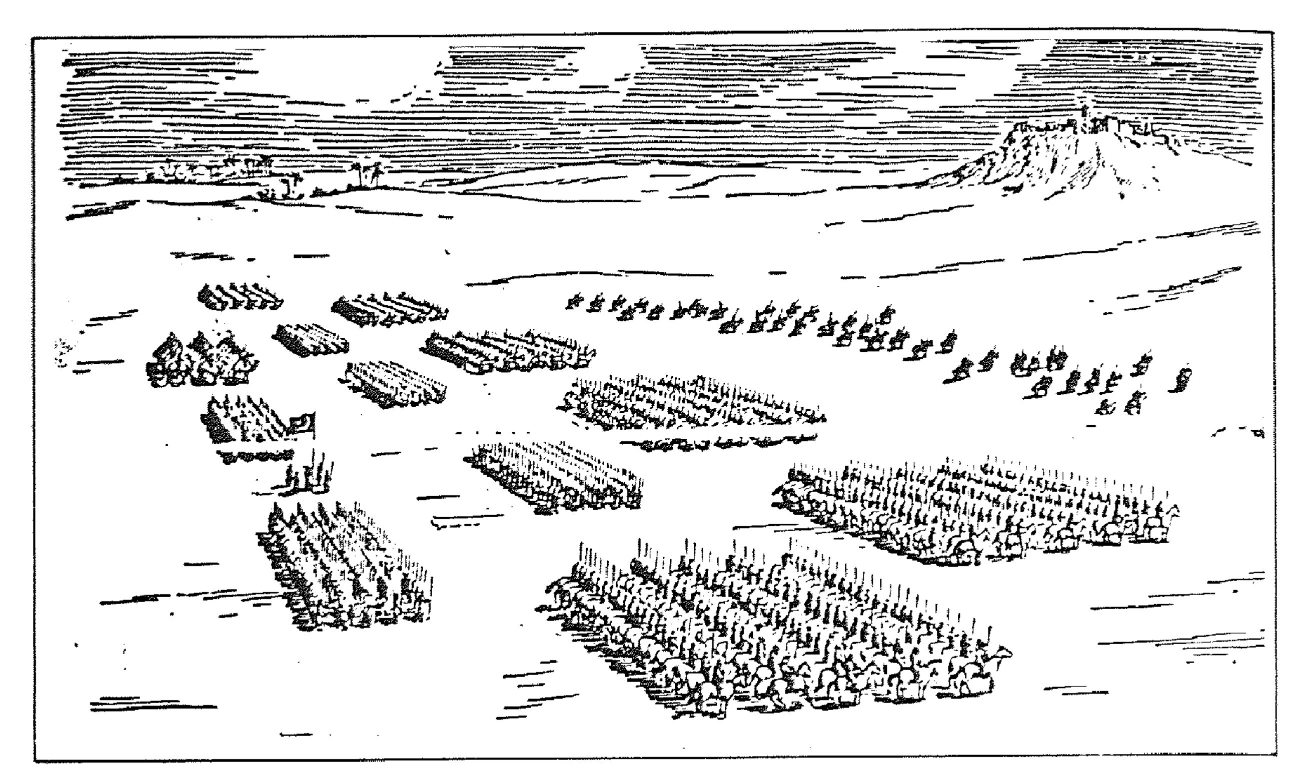
طائش من هذا النوع حال دون وقوع حرب أهلية سيكون النصر فيها بلا شك حليف ريمون الفارس المجرب والمدعوم من قبل السلطان الذي أمده بالرجال والسلاح وأقام في بانياس يراقب تطور الأحداث بغية التدخل في الوقت المناسب. وبعد عيد الفصح عام ١١٨٧ أصبح واضحاً بأن استعدادات صلاح الدين سيتبعها اجتياح للمملكة لذلك فقد جمع ملك بيت المقدس مجلس البارونات ورجال الدين وكان أول قرار اتخذوه مصالحة ريمون كشرط لتنظيم الجبهة ضد المسلمين. فأذعن الملك وأرسل وفداً للمفاوضة يتألف من الأستاذ الأكبر للداوية والأستاذ الأكبر للاستبارية ورئيس أساقفة صور وباليان ديبلان ورونو صاحب صيدا.

في نفس هذا اليوم أراد السلطان وقبل أن يلقي بكامل جيوشه في المعركة القيام بغارة استفزازية لمملكة بيت المقدس هدفها منطقة عكا. فكلف مجموعة من خيرة فرسانه على رأسها مظفر الدين كوكبوري وبلدرم الياقوتي وصارم الدين قيماز النجمي باجتياز أراضي الجليل التابعة لإمارة طبرية بعد الحصول على اذن بالمرور من ريمون الثالث. هذا الترتيب وضع أمير طبريه في موقف حرج جداً إذ ليس باستطاعته رفض طلب السلطان وهو حليفه وحاميه وليس بوسعه جعل إمارته قاعدة وممراً للمسلمين في مهاجمة الأراضي المسيحية لذلك فقد خرج بحل وسط إذ اشترط على القوات الغازية أن تدخل عند شروق الشمس وتعود قبل الغياب ثم أرسل من يخبر أهالي الجليل وحاميات حصونها بمرور هذه القوات ونصحهم بإغلاق أبواب المدن والبقاء داخل الأسوار وعدم التعرض لتلك الحملة وقد نفذت تعليماته ولم تصب المناطق التي مرّ بها الجنود المسلمون بأي أذى ولكن غرور الأستاذ الأكبر للداوية جعل من هذه الحملة الاستعراضية كارثة عندما أراد مجابهة سبعة آلاف من الفرسان المسلمين بمئة وخمسين فارساً من الداوية وبمن انضم إليهم من الحصون القريبة. وعبثاً حاول كبير الاستبارية روجيه دو مولان وجاك دوملي Mailly مرشال الداوية إقناعه بتحاشي الاصطدام مع هذه القوة الهائلة ولكنه أصر على رأيه ولما اتهمهم بالجبن أجابوه بأنهم سيدخلون المعركة رغم تأكدهم من أنهم سيقتلون وانه هو الذي سيهرب وحدث تماماً ما توقعوا إذ ان «وجرت بينهم حرب تشيب لها المفارق السود»[٤٠] لم ينج منها إلا ثلاثة من الهاربين بينهم جيرار دو ريدفور ذاته المسؤول عن هذه المذبحة والذي سيعيش ليدفع بالمملكة أيضاً إلى كارثة حطين.

بعد هذه المعركة غير المنتظرة توجه الذين بقوا من وفد الصلح وهم باليان ريبلان ورونو صاحب صيدا لمقابلة القمص الذي استقبلهم بحرارة وقبل أن يصرف الجنود الذين أرسلهم له صلاح الدين لمساعدته وكما عرض أن يذهب لمقابلة الملك. ولما علم غي بذلك فرح فرحاً عظيماً وأتى بنفسه لملاقاة خصمه القديم. وقد عقد مجلس حرب نوقشت فيه جميع وجهات النظر. ولو ترك الأمر لحكمة ريمون وطبقت سياسته في الدفاع الحذر والمناورة العاقلة لأمكن إنقاذ المملكة ولكن ارناط وصديقه مقدم الداوية لم يمكنا الملك من الأخذ بآراء ريمون في أي وقت من تلك الأوقات العصيبة.

وقبل أن يتفرق المجتمعون أشار ريمون على الملك بضرورة استنفار جميع قوى المملكة ودعوة بوهيمون صاحب إنطاكية للمشاركة بهذه المعركة الحاسمة. وقد لبى الدعوة وأرسل إلى صفورية مركز تجمع قوات مملكة بيت المقدس ابنه ريكون على راس خمسين فارساً. أما جيرار دو ريدفور فقد فتح خزانة أموال هنري الثاني ملك إنكلترا التي وضعها في عهدة الداوية وأمرهم بصرفها تكفيراً عن ذنبه في قتل توماس بيكت فصرفت تلك الأموال في دفع أجور المرتزقة الذين فتحت أمامهم أبواب التطوع على مصراعيها.

هذا ولما وصل ريمون إلى عكا لمقابلة الملك أتى من اخبر بأن صلاح الدين يحاصر طبريا فقد اعتبر السلطان أن معركة صفورية الغت الحلف الذي كان بينهما لذلك فقد ترك الكرك وأتى إلى حوران والجولان حيث تتجمع قواته ونزل إلى منطقة سمخ عن طريق خسفين وبعد قضاء خمسة ايام هناك دخل حدود البلاد الفرنجية

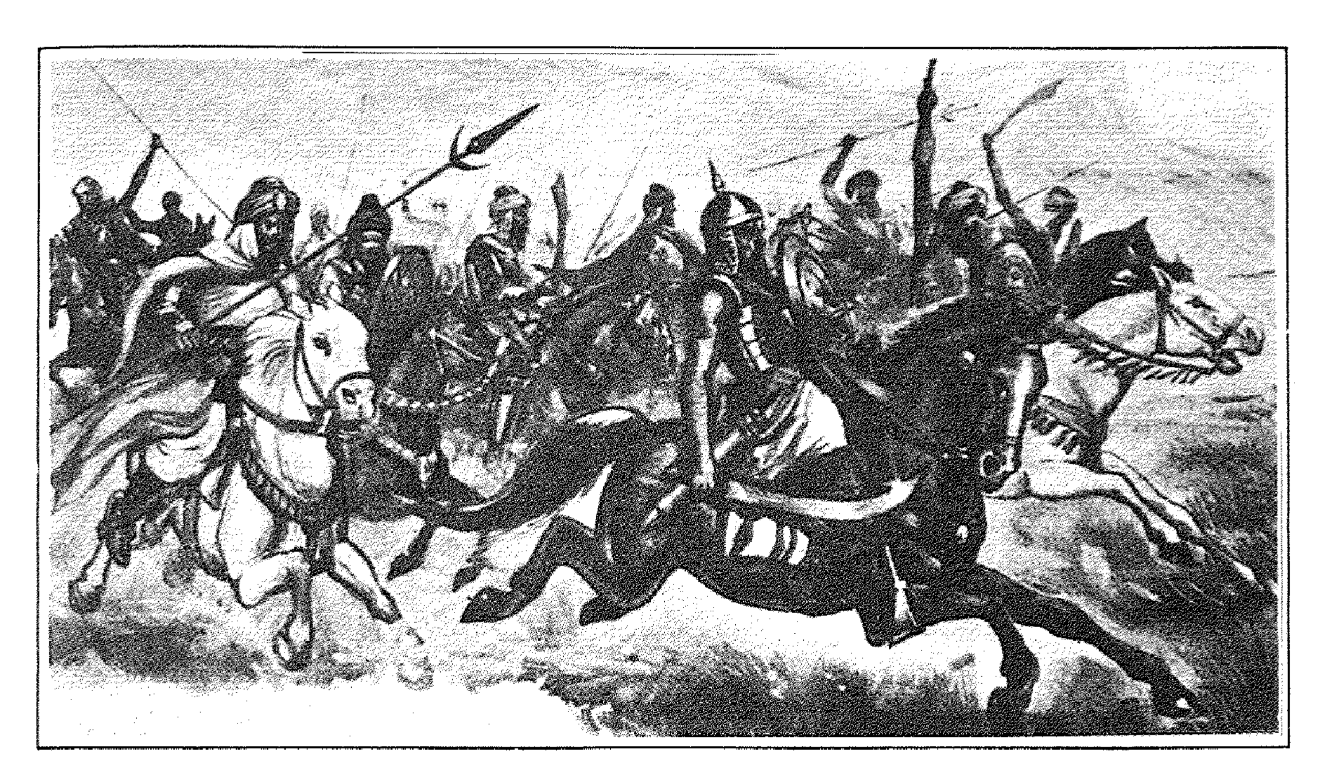


□ ترتيب قتال القوات العربية في القرن العاشر.

متجهاً نحو طبرية وكان ذلك يوم ٢ تموز عام ١١٨٧ وخلال ساعة من الزمن احتلت المدينة ووضعت النار بها ولكن القلعة بقيت تقاوم وفيها الأميرة إيشيف زوجة ريمون على أثر ذلك انعقد المجلس العسكري في عكا حيث كان الملك والبارونات فأشار عليه ارناط ومقدم الداوية بالهجوم فوراً على صلاح الدين وكان من رأي ريمون وهو صاحب طبرية أن تترك المدينة لصلاح الدين وأن لا يخاطر بالاشتباك معه بهذه القلة العددية في هذا الحرّ الشديد.

ولعل أدق وصف للجدل الذي دار بين البارونات ما ذكره ابن الأثير على لسان ريمون الذي قال: «فوالله لقد رأيت عساكر الإسلام قديماً وحديثاً ما رأيت مثل هذا العسكر الذي مع صلاح الدين كثرة وقوة وإذا أخذ طبريه لا يمكنه المقام بهافمتى فارقها وعاد منها أخذناها وإن أقام بها لا يقدر على المقام بها إلا بجميع عساكره ولا يقدرون على الصبر طول الزمن عن أوطانهم وأهلهم فيضطر إلى تركها ونفتك من أسر منا فقال له البرنس ارناط صاحب الكرك قد أطلت من التخويف من المسلمين ولا شك أنك تريدهم وتميل إليهم وإلا ما كنت تقول هذا وأما قولك أنهم كثيرون فإن النار لا يضرها كثرة الحطب. فقال أنا واحد منكم إن تقدمتم تقدمت وإن تأخرتم تأخرت وسترون ما يكون فقوى عزمهم على التقدم إلى المسلمين وقتالهم فرحلوا من معسكرهم الذي لزموه وقربوا من عساكر الإسلام[٤١].

كان انتقاء صفورية مكاناً لتجمع القوات الصليبية فيه كثير من الحكمة نظراً لوقوعها في منتصف الطريق بين الساحل وطبريا إضافة لوجود المياه والمراعي فيها وقد أجمعت الآراء على إبقاء الجيش هناك يراقب تحركات صلاح الدين دون أن يسير إلى طبريا التي أصبحت فخاً بالنسبة لجيش مملكة بيت المقدس. وبالرغم من وصول أخبار تفيد بأن زوجة ريمون محاصرة في القلعة مع حفنة من الفرسان فإن ريمون أصر على عدم نجدة طبريا حتى ولو كان من أجل إنقاذ زوجته لأنه يدرك صعوبة الوصول إلى هناك في ذلك اليوم الشديد الحرارة (٢ ــ ٣ تموز) ويعرف مقدار القوات التي حشدها صلاح الدين في تلك المنطقة. ويذكر ابن الأثير أقوال القمص وكلها تحذر من التورط في السير لتخليص طبريا نظراً لكثرة عساكر المسلمين[٤٢] وبعد اقتناع الجميع بوجهة نظر القمص انتهى اجتماع البارونات وذهب كل واحد إلى مقره. ولكن جيرار



□ جيوش المسلمين.

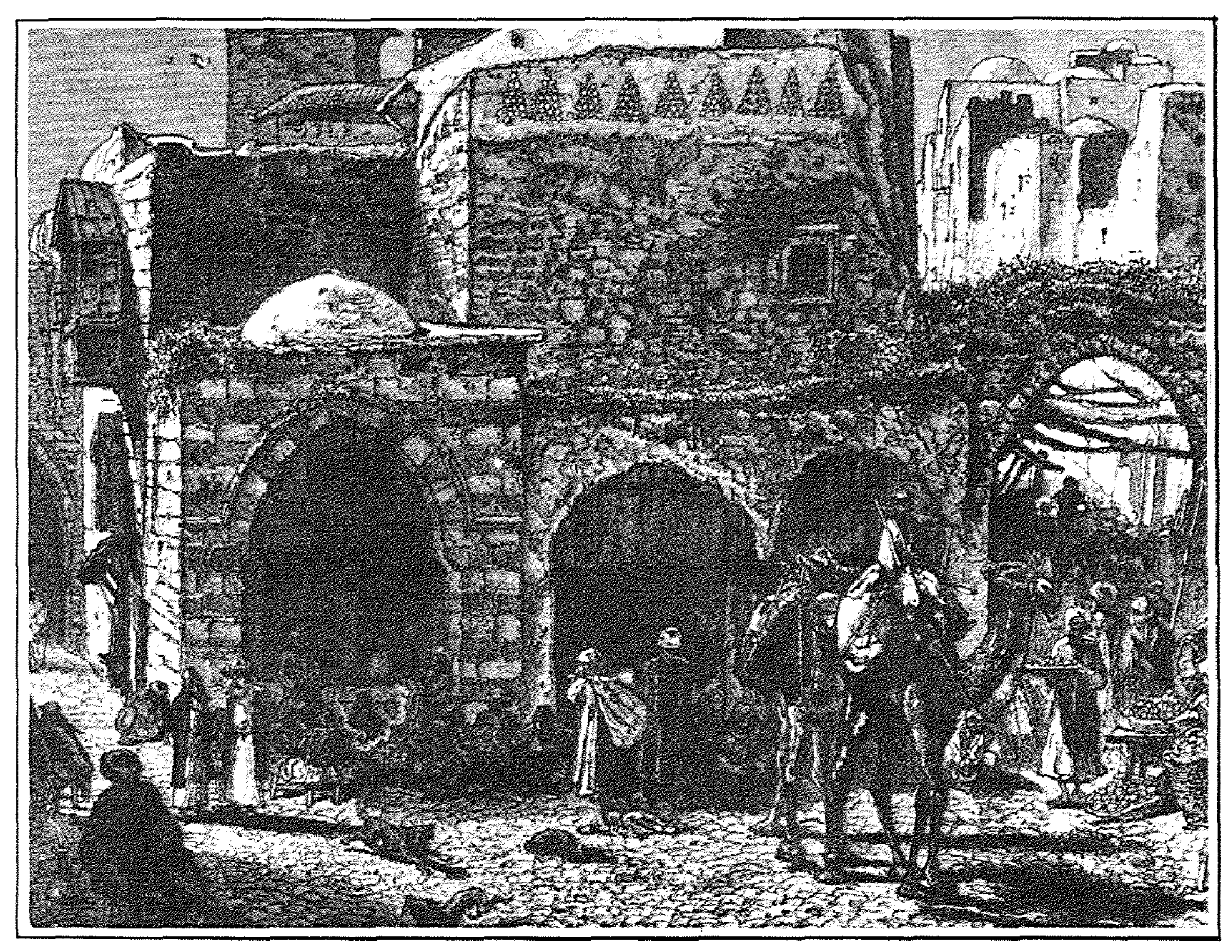
دو ريدفور عاد إلى خيمة الملك وما زال يحسن له فكرة السير لملاقاة صلاح الدين ويطعن بولاء القمص حتى بدل الملك رأيه وأصدر أوامره عند منتصف الليل بالاستعداد للسير وكانت مفاجأة لجميع البارونات الذين خفوا إلى خيمته يسألونه عن السبب في تغيير الخطة. فلم يعط جواباً واكتفى بالقول أريد أن تركبوا خيولكم تسيروا إلى طبريا. وبذلك حقق نبوءة بودوان ديبلان التي قالها منذ سنة بأن غي سيقود المملكة «بكل بساطة» إلى الانتحار[٤٣]. ففي الصباح الباكر ليوم ٣ تموز ترك جيش المملكة صفورية وسار إلى المنطقة التي انتقاها صلاح الدين أرضاً للمعركة. ويقول صاحب الروضتين: لما وصل الخبر بأن الفرنج ركبوا أو وثبوا فرح السلطان وقال جاءنا ما نريد[٤٤] فلما ابتعد الفرنجة عن أراضي صفورية الغنية بالماء وجدوا أنفسهم في منطقة من الهضاب الصخرية الجرداء الخالية من الماء لذلك انصرف هم قوات صلاح الدين إلى منعهم من الوصول إلى الماء وحصرهم في ذلك الأتون فريسة للعطش والحر.

واقترح ريمون على الملك قضاء ليل ٣ ــ ٤ تموز على هضبة قرب حطين فقبل دون تردد رغم تعرض الجيش لمضايقات المسلمين ومناوشاتهم المستمرة طوال الليل فلما أصبح الصباح وجد الفرنج بأن الهضبة مطوقة تماما من قبل صلاح الدين والرياح تهب من ناحية طبرية باتجاه المواقع الصليبية فعندما أضرمت النار في الأعشاب اليابسة الموجودة في المنطقة زاد الدخان وحرارة النار في محنة الجنود الفرنج الذين أرهقهم العطش وأخذت تحصدهم وتحصد خيولهم سهام الجنود المسلمين وسيوف الخيالة الذين كانوا يهاجمون على شكل موجات متتالية وسط لهيب النار وسعير أيام تموز المحرقة فأخذ المشاة الصليبيون يرتمون على الأرض بعد أن يئسوا من الحصول على الماء وتدنت معنوياتهم حتى أصبحوا مسلوبي الإرادة لا يفكرون إلا في الخروج من المعركة. ولئن استسلم المشاة الذين انهكهم العطش فإن الفرسان ردّوا هجمات المسلمين وقاموا بطلعات قوية للدفاع عن ملكهم خير قيام ويذكر ابن الأثير بالتفصيل ما دار بين الملك الأفضل وأبيه السلطان من حديث أثناء الكرّ والفر الذي جرى بين فرسان المسلمين وفرسان الصليبيين على هضبة حطين. هذا الحديث الذي تذكره جميع الكتب نقلاً حرفياً عن المؤرخ العربي[٤٥]. كما يذكر العماد بأن القمص لما أحس بالكسرة[٤٦] وأيقن من انهيار جبهة الفرنج حمل حملة مكروب على حد قول ابن الأثير وتمكن من كسر الطوق الذي أحكم



□ فارس من فرسان صلاح الدين.

حولهم وهرب هـو وريمون ولي عهـد إنطاكيـة وباليان ديبلان ورونو صاحب صيدا ويقال بأن تقي الدين عمر هو الذي فتـح لهم مخرجاً يفرّون منه لما لاحظ بأن هجمـاتهم تدل عـلى اليأس والتصميم على النجاة بأرواحهم(٤٧). أما ما بقي من الجيش الصليبـي فقد حلّت به أكبر هزيمة في تاريـخ الحروب الصليبية وكان المسؤولون عن الكـارثة غي دو لوسينيـان ورونو دو شـاتيون وجيرار دو ريدفور بين الأسرى كما أسر منهم أيضاً أونفـروا الرابـع صاحب تبنين والمركيز غيـوم دو مـونفـرا وقـائـد الجيش عمـوري دو لوسينيان أخو الملك وهوغ صاحب جبيـل وبليبانـوس Plebanus صاحب البتـرون وهم رؤوس الطبقة الحاكمـة الصليبية في المشـرق وكدليل على ضياع الأرض المقدسة وقـع صليب الصلبوط بأيـدي المسلمين أيضـاً. ولما انتهت المعركة أمر السلطان بإحضار الأسرى إلى خيمته فأتوا بغي دو لوسينيان وكان يختلـج من الخوف وقد أنهكه التعب والعطش فهدأ السلطان من روعه وأجلسه إلى جانبه وقدم إليه ماء مثلوجاً فشرب وأعطى الإناء إلى ارناط فانتفض السلطان وقال للملك الم تطلب إذناً مني عندما أعطيته



□ القدس.

ليشرب لذلك فإنني غير ملزم بالحفاظ على حياته.

ثم كلم البرنس وقرّعه بذنوبه وعدد عوراته[٤٨] وذكره باعتدائه على قوافل الحجاج ونكثه للعهود وتدنيسه للمقدسات وطلب منه جواباً على هذه الأعمال المنكرة فأجاب بكل وقاحة: كذلك كانت عادة الملوك. وهنا وفاء للنذر الذي نذره أستلّ السلطان سيفه وضربه فقطع كتفه ثم سحبه بعض الحاضرين إلى خارج الخيمة وأجهزوا عليه. وهكذا فقد انتهت حياة هذا المغامر الذي يرى فيه الفرنج بطلاً ملحمياً ويرى فيه المسلمون مثلاً للصوصية لأن حياته في بلاد الشام كانت سلسلة من المغامرات الدامية والاعتداءات الأثيمة لم يفرق فيها بين مسلم ومسيحي ولا بين حليف أو عدو. فقد كان خؤوناً لدينه ولقومه ولجيرانه لا عهد له ولا ذمة ولا هدف إلا السلب والنهب وسفك دماء العزل من الناس.

وقد هيأ الأسباب لهزيمة الصليبيين في معركة حطين بأضعافه السلطة الملكية وتحديه لها وتمرده عليها وبمساعدته على تنصيب ملك ضعيف تافه في أحرج الأوقات وبتعميق الهوة وتغذية الشقاق بين صفوف حكام الإمارات الصليبية كما مهد لصلاح الدين طريق النصر وأعطاه المبررات لإنهاء الوجود الصليبي باعتداءاته المتكررة على بلاد المسلمين ومهاجمته قوافل الحجاج والتجار وقطعه الطريق الوحيدة التي تصل بين نصفي الامبراطورية الأيوبية وبإثارة الشعور العام للعالم الإسلامي الذي اجتمع حول صلاح الدين واستنفر جميع قواه رداً على محاولة ارناط الاستيلاء على الحرمين الشريفين وضرب الإسلام في أقدس مقدساته.

لقد كانت معركة حطين بداية نهاية الوجود الاستعماري الفرنجي في بلاد الشام هذا الوجود الذي ظل يحتضر خلال قرن من الزمن بعد هزيمته في حطين إلى أن أجهز عليه بطل من مدرسة صلاح الدين هو الأشرف خليل. وحتى

ازال فكرة الحروب الصليبية إلى الأبد واقتلعها من عقول الأوروبيين بطل آخر من ابطال الإسلام هو السلطان بايزيد على أرض نيكوبوليس في قلب اوروبا.

لقد كان القرن الذي تلى النصر في حطين تجربة مفجعة طويلة وكارثة للعالم المسيحي ذاق خلالها ملوك وأباطرة أوروبا الذل والهوان على تراب هذا الشرق.

واخيراً أدرك العالم كما اقتنع خلفاء جان الثامن وأوربان الثاني بعد مئات السنين من سفك الدماء بأن الايدي الاثيمة لرونو دو شاتيون واضرابه لا يمكن أن تنتزع القبر المقدس من الأيدي الأمينة التي حافظت عليه خلال مئات السنين وإن تلك الأيدي الملوثة لا يمكنها حمل رسالة الخير والمحبة والسلام التي بشر بها صاحب القبر المقدس ولن تتمكن من حمل هذه الرسالة السامية وحماية هذا القبر الطهور إلا يد طاهرة كيد صلاح الدين وقلب رحيم كقلب صلاح الدين ونفس مؤمنة كنفس صلاح الدين. ●

الهوامش

(٢٠) ابن شداد ــ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية طبعة محمد افندي علي صبيح القاهرة ١٣٤٦ صفحة ٣٦.

(٢١) ابن الأثير صفحة ١٥٢.

(٢٢) Grousset R. histoire des croisades page 703.

(٢٣) IBID page 703.

(٢٤) ابن الأثير الكامل في التاريخ صفحة ١٥٥.

(٢٥) Grousset R. histoire des croisades page 706.

(٢٦) المقريزي ــ كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر الطبعة الثانية عام ١٩٥٦ صفحة ٧٧.

(٢٧) ابن الأثير الكامل في التاريخ صفحة ١٥٦ حوادث سنة ٥٧٨.

(٢٨) المقريزي ــ السلوك الجزء الأول القسم الأول حوادث سنة ٥٧٨ صفحة ٨٩.

(٢٩) أبو شامة ــ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين حوادث ٥٧٨ صفحة ٣٧.

(٣٠) نفس المرجع حوادث سنة ٥٧٦ صفحة ٢٩.

(٣١) نفس المرجع صفحة ٣٥.

(٣٢) نفس المرجع صفحة ٣٦.

(٣٣) ابن شداد ــ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية صفحة ٥٠.

(٣٤) نفس المرجع صفحة ٥٠.

(٣٥) نفس المرجع صفحة ٥٣.

(٣٦) ابن الأثير الكامل في التاريخ صفحة ١٧٤.

(٣٧) نفس المرجع ونفس الصفحة.

(٣٨) GROUSSET R. page 778.

(٣٩) GROUSSET R. page 780.

(٤٠) ابن الأثير الكامل في التاريخ الجزء التاسع، حوادث سنة ٥٨٣ (ذكر الغارة على بلد عكا) صفحة ١٧٦.

(٤١) نفس المرجع صفحة ١٧٧.

(٤٢) نفس المرجع صفحة ١٧٧ (ذكر فتح صلاح الدين طبرية).

(٤٣) GROUSSET R. page 793

(٤٤) أبو شامة ــ الروضتين في أخبار الدولتين صفحة ٧٦.
أيضاً العماد الكاتب الأصفهاني ــ الفتح القسي في الفتح القدسي طبعة الشرق والغرب، صفحة ٧٧.

(٤٥) ابن الأثير صفحة ١٧٨ ــ غروسيه صفحة ٧٨٦ ــ روتسمان الجزء الثاني صفحة ٤٥٨ ــ ٤٥٩.

(٤٦) العماد ــ الفتح القسي في الفتح القدسي صفحة ٧٩.

(٤٧) أبو شامة ــ الروضتين صفحة ٧٧.

(٤٨) ابن الأثير الكامل في التاريخ صفحة ١٧٨ ــ أبو شامة الروضتين صفحة ٧٩.

□ **القيت هذه الدراسة في «ندوة حطين» التي انعقدت في دمشق في تموز/يوليو ١٩٨٧، بمناسبة الذكرى المئوية الثامنة لمعركة حطين.**

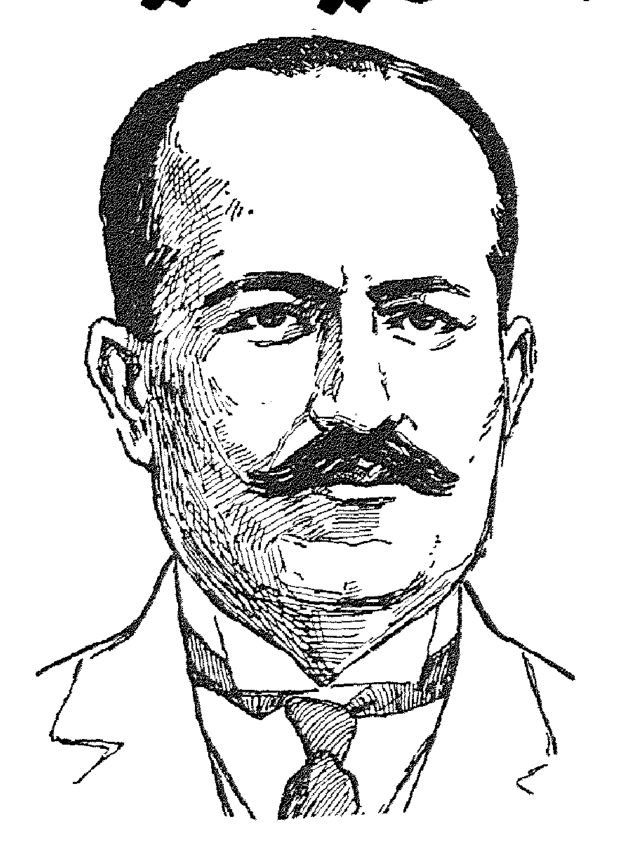
● كيف السبيل إلى مجاهدة مستعمر مسلح؟ السبيل هو الإيمان بحب الوطن، وحب الحرية، فإن الحياة بدون الحرية سجن وموت.

«مكرم عبيد»

العصامي الموهوب

جرجي زيدان

طاهر الطناحي



إذا ذكر العصاميون الذين بنوا أنفسهم، وشادوا للإنسانية صروحاً عالية في مختلف الميادين بأعمالهم المجيدة، وجهودهم الممتازة، فإن جرجي زيدان في المقدمة بين هؤلاء العصاميين الأفذاذ. فقد بلغ بالعصامية أرفع مكان في ميادين العلوم والآداب والثقافة الحرة. وكانت حياته أبلغ درس للشباب المكافح، وأعظم عبرة للذين يقفون يائسين على الشاطىء، لا تحركهم همة، ولا تبعثهم إرادة على اجتياز الأمواج ليصلوا إلى ما يريدون من رقي ونجاح.

لم يقف جرجي زيدان على شاطىء الحياة المدلهمة وهو فتى صغير يائساً من النور، لأن أمي لا يعرف فضل العلم، أو لأنه فقير لا يملك نفقات التعليم، أو لأن ظروف العيش مزدحمة بالمتاعب، بل نظر بعقل الصبي النابغ، فوجد ان الرغبة الصادقة تحطم أقوى العقبات، وأن الإرادة النافذة تحقق المستحيلات، وأنه كما قال ابن الوردي:

لا تقل أصلي وفصلي أبداً ... إنما أصل الفتى ما قد حصل

نعم، لم يقل جرجي زيدان أصلي وفصلي حتى تثبط همته وييأس من النجاح، بل اندفع إلى تحصيل العلوم والآداب، وشق طريقه بنفسه إلى المجد والرفعة، واتخذ من فضل العلم خير أصل، ومن جمال الأدب أحسن نسب!

حادث أليم



نشأ جرجي زيدان في عائلة متوسطة الحال، ولكن الأيام تنكرت لها، فذاقت متاعب الفقر، فقد كان جده زيدان مطر وكيلاً على أملاك السيدة حبوس والدة الأمير مصطفى أرسلان، وكان وقتئذ في سعة من العيش، إذ كانت هذه السيدة تحكم «عين عنوب» وما يليها في لبنان في أوائل القرن الماضي. فلما حمل إبراهيم باشا على سورية وفتح عكا وأراد الاستيلاء لبنان خافت السيدة حبوس بطشه وسطوته، فعزمت على الفرار من وجهه، وطلبت من زيدان مطر أن يرافقها، فاعتذر بمن عنده من أولاد وأهل، فتركته وقد حقدت عليه. فلما ضعف شأن إبراهيم باشا عادت إلى «عين عنوب» وصادرت أملاك زيدان وأمواله، وتعمدت الحط من شأنه، فشق ذلك عليه، وأثر في صحته، ومات قبل أوانه، وقد خلف وراءه زوجة وابنين وابنتين أكبرهم حبيب والد جرجي زيدان.

ولما كانت هذه الزوجة الأرمل لا تستطيع البقاء بأولادها في هذه الحال بعين عنوب، فقد نزحت بهم إلى بيروت، وهي يومئذ مدينة صغيرة لا مرتزق فيها غير الإتجار وصنع ضروريات الحياة كالأطعمة والملابس ونحوها، أو خدمة الحكومة في الكتابة والجندية.

أسرة كادحة

وكان حبيب في العاشرة حين نزل مع أسرته إلى بيروت، فلم يتسع له الوقت للتعليم، فعاش أمياً، وانصرف لتحصيل الرزق وإعالة أسرته، ولم يزد عمله على مطعم صغير في سوق ساحة البرج ببيروت. وكان هو وزوجته ــ على الرغم من ضيق الرزق ــ مثال النشاط والجد في العمل، حتى قال عنهما جرجي زيدان في مذكراته الخاصة:

«نشأت في صباي وأنا أرى والدي يخرج إلى دكانه في الفجر، ولا يعود إلا في نحو منتصف الليل أو قبيله، وأرى والدتي لا تهدأ لحظة من الصباح إلى المساء. لا تعرف الزيارات، ولا تغشى الاحتفالات ولا المجتمعات حتى الدينية، فإنها لم تكن تذهب للصلاة بالكنيسة إلا نادراً، وإنما همها تدبير بيتها، وتربية أولادها.. وقد شبت على ذلك وألفته، فغرس في ذهني، أن الإنسان خلق ليشتغل وأن الجلوس بلا عمل عيب كبير.. بخلاف الأبناء الذين يفتحون أعينهم على والدين يقضون معظم أيامهم في اللهو وشم الهواء. ولا يهمهم إلا ماذا يأكلون، وماذا يشربون. وإذا فرغوا من الطعام عمدوا إلى اللعب بالورق أو غيره.. ولا يقدمون على العمل إلا مكرهين. يحسبون العمل عيباً أو تعباً. ولو عولوا عليه لكفاهم مؤونة المرض والضعف.

فالأبناء الذين يربون بين أولئك الآباء ينشأون كسالى، ويميلون إلى الملاهي والرذائل...».

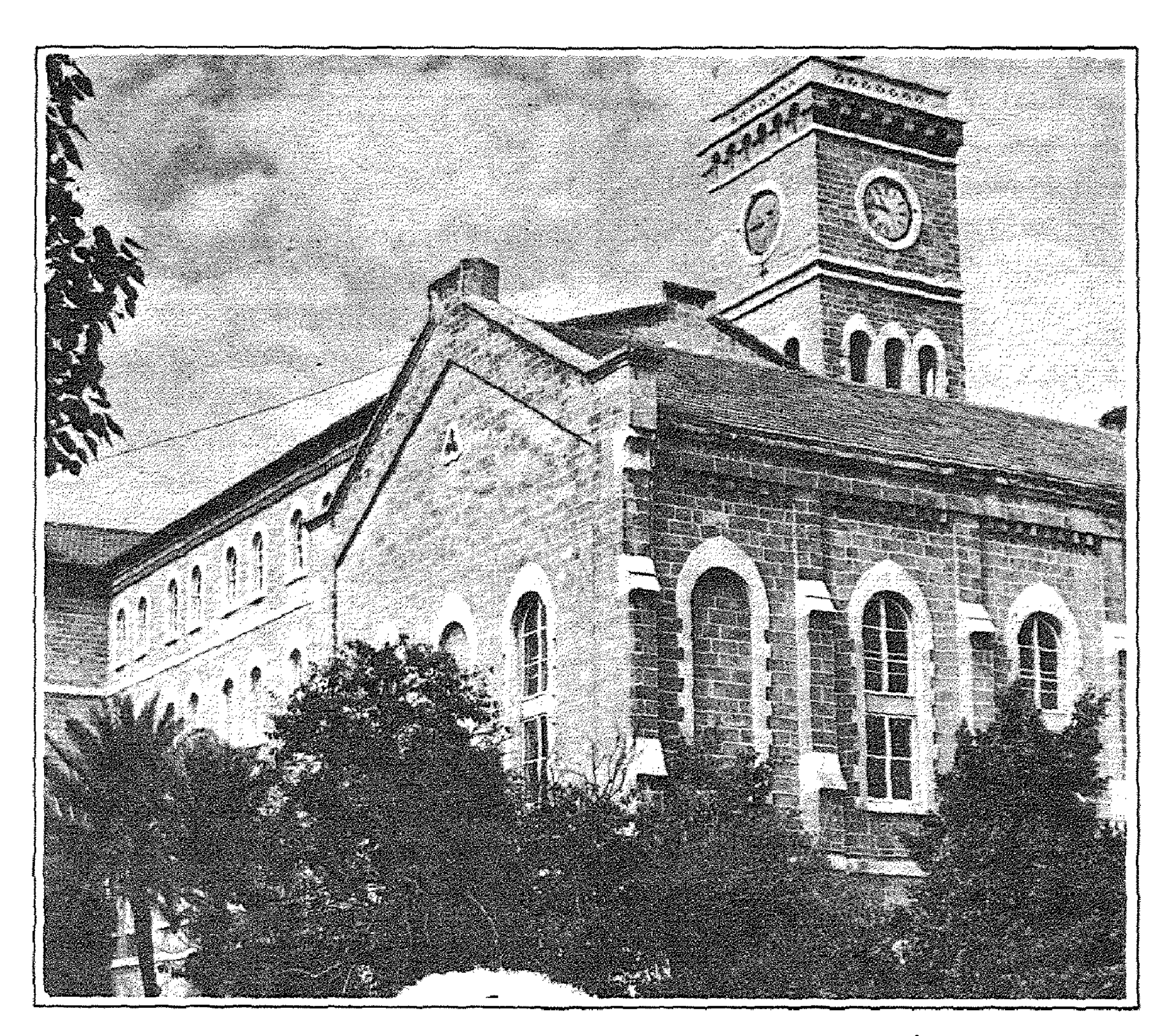
في هذه البيئة النشيطة ــ بيئة العمل المتواصل والجد والعصامية ــ نشأ جرجي زيدان.. ولقد كان والده كما قلنا أمياً، ولكنه شعر بالحاجة إلى الكتابة والقراءة ليدون حساب مطعمه، فاستخدم كاتباً لذلك. ودعته هذه الحاجة إلى أن يرسل ابنه جرجي وهو في الخامسة من عمره إلى مدرسة حرة يديرها قسيس يدعى المعلم الياس شفيق. وكانت في قبو وضيع، يجلس التلاميذ فيه على حصير مبسوط على الأرض. وقد أمضى في هذه المدرسة سنتين لم يتعلم فيهما شيئاً غير فك الخط، ثم نقله والده إلى مدرسة تدعى مدرسة الشوام، فتلقى فيها مبادىء الحساب والنحو والصرف والخط واللغة الفرنسية، وبقي فيها نحو عامين، ثم أغلقت. فانتقل إلى مدرسة المعلم طاهر خير الله فمكث بها عامين آخرين.

في مطعم أبيه

أصبح في الحادية عشرة، وذاق لذة العلم والتعليم وتفتحت نفسه بالأمل إلى المستقبل، غير أن والده ما لبث أن دعاه إلى مساعدته بالمطعم ليقيد أسماء الزبائن وحساباتهم ويلاحظ الحال ريثما يجد مساعداً غير المساعد الذي تركه وقد قال له:

«تعال يا جرجي لمساعدتي سبعة أيام أو ثمانية ريثما أجد من يقوم مقامك..».

فأطاع والده، وهو يعلل النفس بالرجوع إلى المدرسة، ولكن هذه الأيام السبعة امتدت إلى سبعة أعوام حتى خشيت والدته على مستقبله..



□ الجامعة الاميركية في بيروت

وقد قال في مذكراته:

«ولما مضى على اشتغالي في ذلك المطعم عام وبعض العام، خافت والدتي أن يطول مقامي ويضيع مستقبلي. وكانت تكره المطاعم، وكانت منذ طلبني والدي لمساعدته تلح عليه ألا يطول مقامي، وهو يعدها.. فلما مضت السنة الأولى الحت عليه أن يخرجني، ويعيدني إلى المدرسة، فقال لها: «إنه قد أتم دروسه، ولا فائدة من كثرة الدرس، إلا إذا كنت تنوين أن تجعليه كاتباً أو معلماً. فضلاً عن أن كثرة التعليم تجعله متفرنجاً متأنقاً لا يأكل إلا بالشوكة والسكين، وربما حدثته نفسه أن يلبس اللباس الأفرنجي — وكان هذا اللباس قليلاً، وكان الأكل بالشوكة والسكين لا يزال معدوداً من عادات المتفرنجين.

«ولم يقل والدي ذلك في نفور من المدنية، ولكنه كان محباً للمحافظة على العادات الشرقية. وكان يكره التصنع والتظاهر بمظاهر الأفرنج، فاقتنعت والدتي بهذا الجواب، ولكنها ما زالت تكره أن أبقى في تلك الصناعة، وقالت لأبي: ادخله في صناعة أخرى، فإني أكره هذه الصناعة ورائحة الزفر والانحباس في الدكان ليل نهار — لا عيد.. ولا أحد — فأذعن لاعتراضها.. وبعد النظر قر رأيهما على أن أتعلم صناعة الأحذية الأفرنجية».

وقد كانت صناعة الأحذية الأفرنجية وقتئذ حديثة العهد في بيروت، وحجتهم في اختيارها له وهو في الثانية عشرة من عمره أن بعض البيروتيين مارسوها فاثروا منها منها وصار لهم

أموال وأملاك، وقد مكث في هذه الصناعة سنتين تعلم فيهما أكثرها. ولكنه ما لبث بعد ذلك أن تركها لأنها لم توافق صحته وأصابه ضعف في معدته من الجلوس الطويل على الكرسي للعمل، وخاف والداه عليه، فقررا إعادته إلى المطعم مؤقتاً ريثما يفكران في صناعة أخرى تلائمه!

صبر جميل

تذرع الصبي جرجي زيدان بالصبر، فلم يكن أمامه في ظلام الحياة، ومحاربة الأيام غير الصبر والأمل.. ولكن أين الأمل؟.. فليس حوله إلا السدود والعقبات، وإلا ما يبعث على اليأس، ولكن نفسه الكبيرة لم تعرف اليأس.. لذلك تذرع بالصبر وحده. والصبر محمود، ولا سيما في هذه الحال التي لا حيلة فيها غير الصبر، كما قال ابن الرومي:

أرى الصبر محموداً وفيه مذاهب
فكيف إذا ما لم يكن عنه مذهب
هو المهرب المنجي لمن أحدقت به
مكاره دهر ليس عنهن مهرب

صبر جرجي زيدان وعاد إلى مطعم أبيه — لا عودة الجبان المستسلم لقسوة الأيام، ولا الضعيف اليائس الذي سدت في وجهه الآمال وانهزم في معركة الحياة، فسئم جهاده وقعد كئيباً يندب حظه، ويأسى على نفسه، أو يتعزى بغيره ممن هزمهم الدهر فاستسلموا للهزيمة، وأضاعوا أعمارهم سدى دون أن يكون لهم في الحياة العليا سهم أو نصيب — كلا، بل عاد إلى مطعم أبيه كما يعود القائد الشجاع من الميدان ليتزود بالتفكير وانتهاز الفرص، ويضع الخطط الجديدة ليواصل جهاده، ويفوز بما قدر لهذا الجهاد الصادق من نصر فائق ومستقبل عظيم.

بارقة أمل

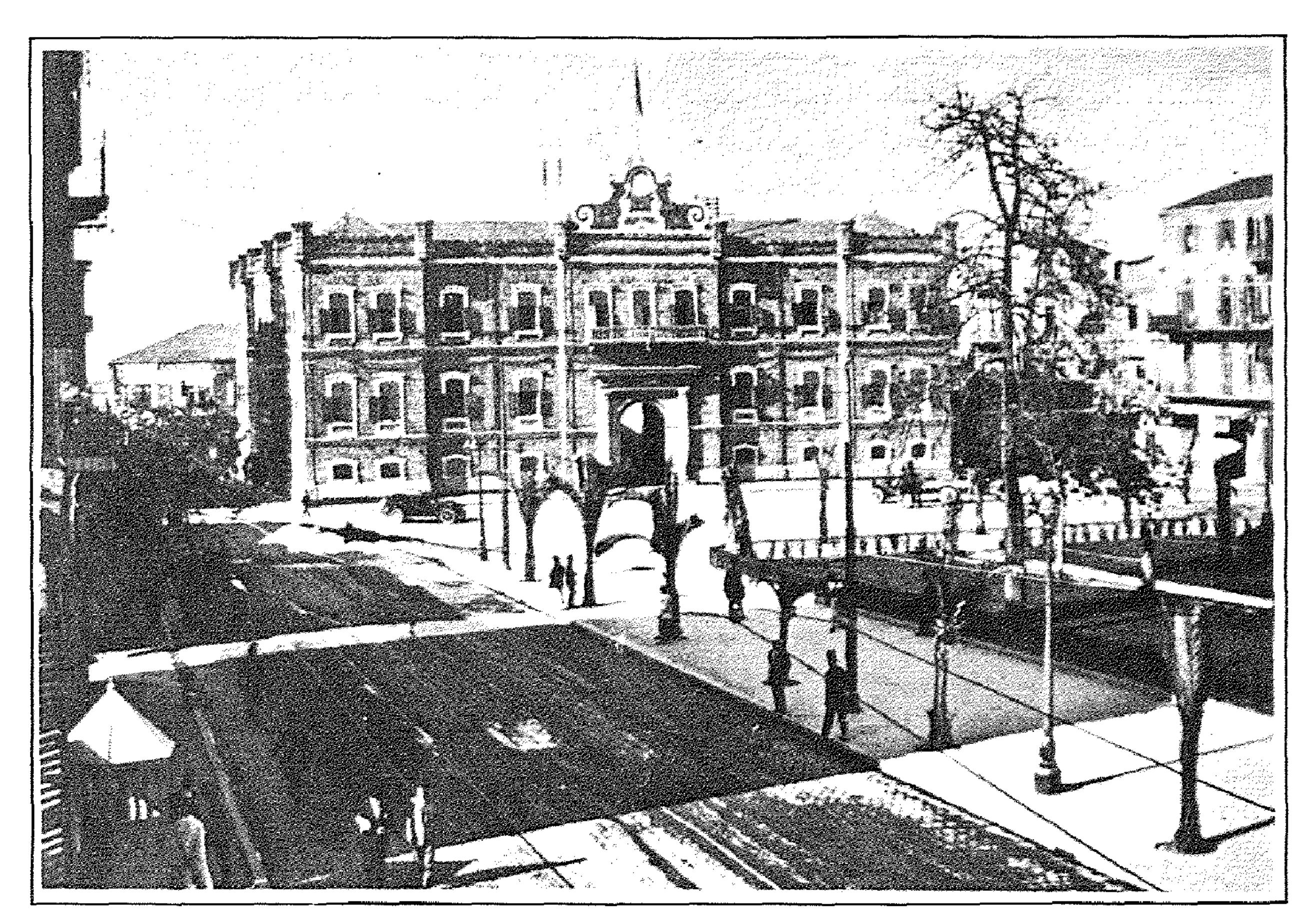
وكانت بيروت وقتئذ حافلة بأهل اللهو والبطالة، وكان منهم من يترددون على هذا المطعم، وكان الصبي جرجي يرى في هذا الظلام ضياء الله، ويلمح بالسريرة ما هيىء له في المستقبل من مجد علمي وأدبي، فلم يلتفت إلى ما حوله من فساد وجهل ولم ينزع إلى ريبة، ولم ينزلق في مائمة. ثم ظهرت طبقة متعلمة تخرجت من مدارس الإرساليات الدينية المسيحية من أميركية وألمانية وانجليزية. وكانت هذه المدارس قد أنشئت على أثر حوادث عام ١٨٦٠ لنشر العلم والأدب على نهج التمدن الحديث، وعلمت طائفة من الشبان الذين تكونت منهم الطبقة المتعلمة التي كان عليها المعول في تغيير الآداب الاجتماعية في بيروت. وكان جرجي زيدان ينظر إلى هذه الطبقة وقتئذ وهو يشعر بتقصيره في مجاراتهم في التربية والتهذيب، فكان يتقد غيرة ورغبة في أن يأخذ مثلهم بنصيبه من العلم والتعليم.

واتفق ذات يوم أن زار المطعم المعلم مسعود الطويل — أحد المعلمين في بيروت — فذكر أنه فتح مدرسة يعلم فيها الشبان اللغة الأنجليزية ساعة قبل الغروب، فرغب جرجي زيدان في تعلم هذه اللغة لقاء ما يتناوله المعلم مسعود من طعامه في المطعم، وكانت سنه لا تزيد على خمسة عشر عاماً، فصار يتردد عليه في بيته مع ١٤ تلميذاً، ومكث هناك خمسة أشهر، قال له المعلم مسعود في نهايتها أنه تعلم الأنجليزية جيداً، فجرب قوته في مطالعة كتاب «رحلة كوك في جزائر المحيط» فرأى نفسه أقل كثيراً مما كان يظن، فأخذ في الدرس لنفسه حتى كان لا ينام الليل في كثير من الأيام.

ولما شعر بأنه على نصيب وافر من هذه اللغة لمعت في نفسه ملكة التأليف التي ظهرت فيما بعد قوية عارمة، فأخذ في وضع قاموس انجليزي عربي في ذلك الحين. وقد وصل في تأليف هذا القاموس، إلى حرف (E) ولم يكن قد ظهر مثل هذا القاموس، ثم مل هذا العمل لقلة وسائله.. على أن ذلك لم يثن عزمه عن العناية بتقوية نفسه في اللغتين العربية والأنجليزية، فأخذ يطالع فيهما كتب اللغة والأدب.

كتاب مجمع البحرين

وكان أول كتاب عني به في اللغة العربية وأحب اقتناءه، كتاب «مجمع البحرين» للمرحوم الشيخ ناصيف اليازجي. وهو كتاب أدبي وضعه مؤلفه في ستين مقامة على طراز مقامات الحريري. وكان قد ابتاعه من أحد باعة الكتب المتجولين. ولهذا الكتاب قصة طريفة يرويها



□ السراي الصغير في ساحة البرج ١٩٢٥.

جرجي زيدان في مذكراته، فيقول:

«كنت أسمع بكتاب مجمع البحرين، وأحب اقتناءه. لكني كنت استغليه، لأن ثمنه على ما أظن كان أربعة فرنكات أو خمسة، ففي ذات يوم كنت جالساً بالمطعم، فمر غلام وبيده هذا الكتاب مستعملاً، وهو يعرضه للبيع، فاشتريته منه بتسعة قروش بيروتية أي أقل من نصف ثمنه، وفرحت به كثيراً. ولما رجع والدي سألني عنه، فأخبرته أنني اشتريته بتسعة قروش، فزعل، وقال: «أتدفع في هذا الكتاب تسعة قروش، وتبدل الدراهم بورق»!

«فزعلت ولم أجبه، ولما انصرفنا للبيت في المساء، وكانت الوالدة قد أعدت لنا العشاء، أظهرت أني لا أريد الطعام، وذهبت للنوم، وأنا أتوقع أن يدعواني، ولا يتركاني أنام جائعاً. وسمعت والدتي تعنف والدي لإغضابي حتى نمت بلا أكل، ولكنه أصر على رأيه.. واتفق أن جاء أمين فياض أحد أصدقاء والدي للسهرة عنده في تلك الليلة، وكان يتودد إلي، فسأل عني، فقيل له أني نمت. واغتنمت والدتي هذه الفرصة، وشكت إليه عناد والدي، فسأله عن سبب غضبه، فقال: «إنه يصرف الدراهم في شراء الورق بلا فائدة»!.. فأجابه: «اشكر الله يا أبا جرجي أن ابنك ينفق الدراهم في شراء الكتب، وليس في السكر ونحوه، أنها نعمة يجب أن تشكر الله عليها».

«وسمعت كلمات هذا الصديق وأنا أتظاهر بالنوم. وللحال اشتد ساعد والدتي، وقامت فأيقظتني، وأجلستني إلى المائدة، وطيبت خاطري، وكذلك والدي.. ولا تزال هذه الحادثة نصب عيني..».

غرام بالعلم وهمة وإرادة

وقد دفعه غرامه بالعلم والتعليم إلى مطالعة كتب الطبيعة والجغرافيا واستعان ببعض المتعلمين ممن يترددون على مطعم والده. وكان إلى ذلك الحين لا يعرف النواميس الطبيعية كدوران الأرض والكواكب، وخسوف الشمس والقمر وأسباب السحاب والمطر وغيرها. وقد اطلع في إحدى المجلات على مقالة في سبب الخسوف

والكسوف، بعثت في نفسه الرغبة في مطالعة هذه الكتب، فأقبل عليها حتى استوعبها بهمة وإرادة قوية. وكان وقتئذ يلبس السروال البيروتي ويعتقد أن لابسي البنطلونات أرقى عقلاً وأوسع معرفة وأصح حكماً من لابسي السراويل، لأن أكثرهم من المتعلمين، فلما استنار بنور العلم ضعف عنده هذا الاعتقاد، وشعر أنه إنسان له شخصية وإرادة، وصار لا يستبعد مجاراة أهل السراويل لأهل البنطلونات!

وقد كان به جنوح غريزي إلى العلم والأدب، وكانت والدته كما رأت منه ذلك ساعدته عليه، غير أن العقبة في إخراجه من محل أبيه أن يجد عملاً آخر يستغني به عن عمله، ففكر في تعلم حساب مسك الدفاتر ليكون كاتباً في أحد المخازن، فوافقه والده على ذلك. وكأنه رأى في هذا العمل منجاة ومهرباً من المطعم ريثما تتاح له الفرصة ليواصل جهاده في سبيل العلم والأدب، لا في سبيل المادة، ولا في سبيل الأرقام الصامتة التي يجمعها ويحسبها في هذه المحنة النفسية التي يعانيها في ذلك الحين..

يقضي على المرء في أيام محنته
حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن

أمنية حققتها الأيام

تعلم مسك الدفاتر على معلم معروف في بيروت حتى أتقن هذا الفن في نحو شهرين، ثم وظف في أحد مخازن القماش، ولكنه لم يرتح إلى هذه الوظيفة التي لم يلبث فيها غير نصف نهار عاد في مسائه إلى مطعم أبيه. وكان هذا المطعم قد أصبح مقصداً ومراداً للطبقة المتعلمة في بيروت، وكان يزوره بين حين وآخر بعض العلماء والأدباء والصحفيين كالشيخ إبراهيم اليازجي والمعلم عبد الله البستاني، فكان يجتمع بهم ويستفيد منهم، وكان يميل إلى مباحثة الطلبة الذين يترددون عليه وخاصة طلبة الطب في «المدرسة الكلية»، التي أصبحت فيما بعد الجامعة الأميركية ببيروت. وكانوا يرون فيه استعداداً عجيباً، وقد يدخل معهم في بحث علمي، فيسمعون منه أقوالاً لا يعهدونها في أمثاله، فأحبوا صحبته، وأخذوا يدعونه إلى الاحتفالات التي تجرى في المدرسة على أثر الامتحانات، فيسمع الخطب، ويشاهد التلاميذ الناجحين، فيتقد قلبه غيرة وحمية، ويود لو أتيح له يوماً أن يكون بين هؤلاء الناجحين. كان كلما حضر احتفالاً فكر في نفسه، وما يعترضه من العقبات في سبيل تحقيق أمنيته، فيخرج منقبض الصدر، ويلاحظ عليه أصدقاؤه ذلك، فيسألونه، فلا يبوح لهم بما في سره وما تنطوي عليه جوانحه من الآلام. وذات يوم صارح أحد أصدقائه قائلاً:

— ألا يأتي يوم أقف فيه موقف أولئك المتعلمين؟

ثم سكت صابراً، وأخذ يفكر فيما يوصله إلى ما يريد.

سر النجاح

من الأقوال الحكيمة التي ما زالت من دروس الحياة، وهي نتيجة التجارب قول البحتري:

لا يلبث الممنوع تطلبه
حتى يثوب إليك ممتنعه

وكذلك كان جرجي زيدان يتعشق التعليم ويغرم بالعلم ويلح في طلبه حتى ثاب إليه ما منع عنه وأسلس قياده. وقد ضاعف همته، وأثار بواعث نشاطه ما قرأه من سير الرجال الذين نالوا المجد والعظمة بجدهم واجتهادهم، واعتمادهم على أنفسهم، وفيهم من كان حلاقاً، أو حداداً، أو نجاراً، أو عاملاً من العمال، وقد أتيح له وقتئذ أن يقرأ كتاب «سر النجاح» الذي نقله إلى العربية الدكتور يعقوب صروف، فاطمأنت نفسه، وشعر بحافز قوي إلى المضي في عزمه على تعلم الطب.

وكان قد انتظم في عضوية «جمعية شمس البر» ببيروت. وهي جمعية أدبية أكثر أعضائها من تلاميذ المدرسة الكلية ببيروت، فأفضى بعزمه إلى بعض أصدقائه، فدهشوا لأن طالب الطب ينبغي أن يمتحن عند دخوله هذه المدرسة في الهندسة والحساب والجبر وعلوم الطبيعة، ولم يكن جرجي زيدان قد ألم بها إلماماً يساعده على النجاح في الامتحان — هذا عدا الامتحان في اللغتين الانجليزية والعربية — ولم يكن أمامه إلا عطلة الصيف، وهي نحو أربعة أشهر.. وقد حق لأصدقائه أن يدهشوا لو ان جرجي زيدان كان طالباً عادياً، ولم تكن

الأقدار قد زودته بهمة عالية ونبوغ فائق. ولهذا لم تثنه هذه الدهشة أو هذا التثبيط عن تحقيق أمنيته، فأقبل على هذه العلوم يدرسها ويذاكرها ليل نهار، وتقدم لامتحان القبول بمدرسة الطب. وكانت دهشة أصدقائه لنجاحه أشبه باعترافهم بنبوغه. وكانت وثبة من «سوق الطويلة» ببيروت إلى ساحة «المدرسة الكلية الأميركيـة» جعلته يشعر بمواهبه وأنه لا يقل عن لابسي البنطلونات مقدرة وذكاء..!

ثورته الحرية الفكرية

انتظم في دراسة الطب في المدرسة الكلية عام ١٨٨١، وكان مثال الاجتهاد والتفوق على قرنائه. ونال في الامتحان السنوي درجات الامتياز، وقد حضر الاحتفال هذه المرة، لا زائراً ولا متفرجاً كما كان في الاحتفـالات الأخرى، بـل ناجحـاً ممتازاً يشار إليه بالبنـان، وحققت له الإرادة القـوية مـا كان يتمنى فـوقف «موقف أولئـك المتعلمين». بل وقف بينهم موقف الممتازين.

وكـانت السنة الثـانية للطب، فـانتظم مـع إخوانه في الدراسة، ولكن لم يمض غير شهرين حتى وقعت حادثة الحرية الفكرية في المدرسة الكلية، وكان جرجي زيدان من أكثر المتحمسين لها، بل كان أكثرهم تحمساً. وقد انجلت عن خروجه مـع معظم تلامذتها، غير أنه ثابر على دراسة علوم الصيدلة بعد خروجه، وأدى امتحاناً في هذه العلوم أمام لجنة حرة تألفت في بيروت من أشهر أطباء سورية ولبنان تحت رئاسة الكولونيل مراد بك حكيمبـاشي المعسكر، ومن أعضـائها الدكتـور فانـديك، والدكتـور لويس، والدكتور رابوطاجي، وغيرهم. ونال شهادة الصيدلة في العلوم الآتيـة: اللغة اللاتينيـة، والطبيعيـات، والحيـوان، والنبات، والجيـولوجيـا، والكيميـاء العضوية والمعدنية، والتحليل الكيميائي، والمواد الطبية، والأقرباذين العلمي والعملي.

هجرته إلى مصر

وبعد أن حصل على هذه الشهادة من هذه اللجنة الطبية الحرة اعتزم أن يتم دراسة الطب البشري في مدرسة قصر العيني بمصر، وكان ناظرها وقتئذ الدكتور عيسى (بـاشا) حمـدي، لم يكن عنده ما يتزود به من النفقة في الأيام الأولى من الرحلة إلى البلاد المصرية، ولقد غامر بمستقبله في سبيل الحرية الفكرية التي ثار لها هو وزملاؤه في المدرسة الكلية، وكانت أول ثورة وإضراب للطلبة في الشرق، إذ كان يتعلم الطب ليعيش، وكان يتزود من التعليم ليحقق آماله في العلم، فلما خرج من هذه المدرسة شعر كأنما انقطـع حبل آماله، وإن جهاده ذهب سدى، لكن ما لبثت عزيمته أن استردت قوتها، وما عتمت إرادته أن تغلبت على ضعف نفسه، وكان له جار ببيروت يعلم حاله وما آل إليه، فأقرضه ستة جنيهات ضمها إلى ما كان معه من قليل النفقة، وسافر إلى مصر، ولم ينس أريحية هذا الجار فرد له الجنيهات الستة بعد عام حينما مارس العمل لأول مرة في مصر.

اشتغاله بالصحافة

وكانت سنه حينما هاجر إلى البلاد المصرية، لا تزيد عن اثنتين وعشرين سنة ــ إذ ولد في ١٤ ديسمبر عام ١٨٦١ ــ فركب إحدى البواخر التجارية. وهي أول مـرة يركب فيهـا البحر، ووصلت به الباخرة صباحاً إلى الإسكندرية في أكتـوبر عـام ١٨٨٣. كان ذلك عقب الثـورة العرابية، فشاهد هذه المدينة في حالة يرثى لها على أثر الحريق وحوادث التدمير التي حلت بها من العدوان البريطاني. وكان لذلك أثره فيما بعد حين دون حوادث هذه الثورة في كتابه «تاريـخ مصر الحديث».

وبعد أن استراح بالإسكندرية قليلاً شخص إلى القاهرة، وتقدم لمدرسة الطب. غير أن طول المدة لنيل شهادتها، حول عزمه عن صناعة الطب إلى صناعة القلم، فتولى تحرير «جريدة الزمان». وكانت حينئذ الجريدة اليومية الوحيدة بالقاهرة. وقد مكث في تحرير هذه الجريدة عاماً أو يزيد. ثم استقـال منهـا ليعمـل في الحملة النيليـة إلى السودان.

الفلسفة اللغوية

سافر إلى السودان مترجماً في الحملة النيلية لإنقاذ غوردون (باشا) فقضى فيه عشرة أشهر شهد في أثنائها أعظم الوقائـع الحربيـة مثل

واقعة أبي طليح وغيرها. وقد قاسى في هذه الرحلة ألواناً من المشقات، ولكنها كانت فرصة له لاستطلاع أحوال هذا القطر، ولما عاد إلى مصر نال ثلاثة أوسمة مكافأة له على جهوده.. غير أنه لم يستقر في مصر بعد عودته من الحملة، بل سافر إلى بيروت عام ١٨٨٥، فانتدبه المجمع العلمي الشرقي ليكون عضواً عاملاً فيه فمكث في بيروت عشرة أشهر يطالع اللغات الشرقية، فدرس العبرانية والسريانية. ووضع على أثر ذلك أول كتاب له، بل أول كتاب من نوعه في الشرق، وهو كتاب «الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية» ولم تكن سنه قد تجاوزت الخامسة والعشرين..!

وفي هذه الأثناء ألف أحد أصدقائه رواية سماها «رواية البطلين» جعل جرجي زيدان أول بطليها، وجعل غوردرن (باشا) البطل الثاني. وقد وصف المؤلف فيها عصامية جرجي زيدان وانتصاره في معركة الحياة، وبطولته في التغلب على العقبات حتى وصل إلى ما يريد مع المحافظة على الفضائل والآداب الراقية.

عمله في «المقتطف»

كانت مجلة «المقتطف» في ذلك الحين هي أرقى المجلات العلمية وأشهرها في الشرق العربي، وكانت تجتذب أقلام العلماء والأدباء، وقد راسلها جرجي زيدان ببعض مقالاته الأدبية وبحوثه العلمية، فقدرت جهوده في صناعة الفكر والقلم. وكان قد سافر في صيف عام ١٨٨٦ إلى عاصمة الأنجليز، وتردد على أندية العلم فيها وزار المتحف البريطاني ثم عاد في الشتاء إلى مصر، فاختير مديراً عاماً لإدارة مجلة «المقتطف» فقبل، ومكث في هذه الوظيفة حتى عام ١٨٨٨ وكان يقوم بجميع شؤونها الإدارية يساهم في التحرير ببحوثه القيمة.

ولعل من الطريف أن نذكر أن جرجي زيدان في أول نشأته وهو في بيروت بعث بمقالة إلى هذه المجلة ينتقد فيها الآباء الذين لا يعلمون أولادهم، وكانت أول مقالة كتبها في حياته، فلم تنشرها المجلة وصادف أن جاءه مديرها في الصيف، وتناول طعامه في مطعم أبيه، فسأله عنها، فأجابه: «إنه يرجو أن تكون المقالة الثانية



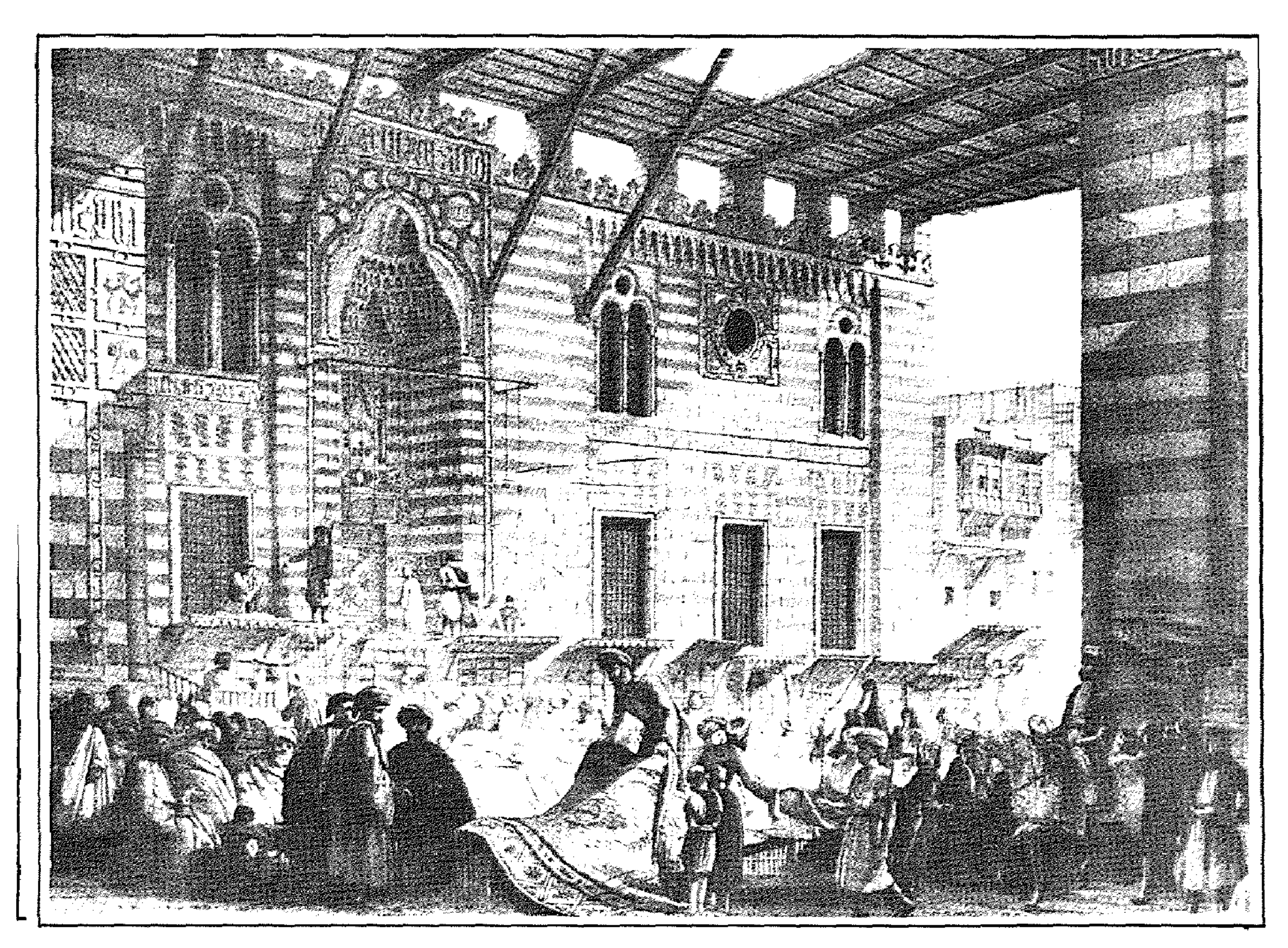
□ إبراهيم باشا.

خيراً من الأولى..!» وأراد الله أن يكون جرجي زيدان مديراً للمقتطف بعد نحو عشر سنوات من هذه الحادثة.

انصرافه للتأليف

مكث جرجي زيدان عامين مديراً للمقتطف، وكان مرتبه في تلك الوظيفة ثمانية جنيهات في الشهر. ولعل القارىء يظن أن هذا المبلغ في ذلك الزمان يعد ضخماً إذا قيس بقيمة العملة في عصرنا الحاضر، هذا صحيح إذا كان جرجي زيدان تناوله لقاء أعمال إدارية فقط أو أعمال تحريرية فقط، أو أعمال خاصة بالمطبعة وشؤون الورق والحبر والبريد والمشتركين والعمال فقط، بل كان يتناوله لقاء هذه الأعمال كلها، فقام بها خير قيام، ثم رأى وقته قد ضاق عما يغرم به من متابعة البحوث والتأليف، فاستقال من المقتطف، وانصرف لوضع نفائس المؤلفات، فألف كتاب تاريخ مصر الحديث في جزءين وعانى في تأليفه صعوبات جمة، وفي عام ١٨٨٩ ألف تاريخ الماسونية العام. وهو أول كتاب من نوعه كتب في العربية، ثم كتاب التاريخ العام وهو مختصر تاريخ آسيا وأفريقيا القديمة والحديثة.

وفي أواخر تلك السنة انتدبته المدرسة العبيدية الكبرى لطائفة الروم الأرثوذكس بمصر ليتولى إدارة التدريس العربي فيها، فتولاها سنتين. وفي أثناء هذه المدة ألف رواية: «المملوك الشارد». وهي أولى رواياته التاريخية، فصادفت



□ رسم قديم لسوق الغورية في القاهرة.

إقبالاً كبيرا حتى طبعت عدة طبعات. وكانت سنه لا تزيد عن ثمانية وعشرين عاماً!..

تأسيسه للهلال

أغرم جرجي زيدان بتحصيل العلوم والآداب، فدرس كثيراً، وقرأ طويلاً، وكان جهده هو أستاذه الأكبر، واعتماده على نفسه هو رائده الأعظم. وكما وهب نبوغاً في دراسة العلم والتاريخ وتحصيل الأدب، وهب ملكة ممتازة، ونبوغاً فائقاً في البحث والتأليف، وصبراً عجيباً على مشاقهما.. وقد عرف في التاريخ نوابغ كانوا نادرة الزمان في ذكائهم وعلمهم، ولكنهم لم يخلفوا وراءهم آثاراً، أو لم يخلفوا كثيراً من الآثار النافعة تتناسب وما اشتهروا به من نبوغ وعبقرية.

ولكن جرجي زيدان النابغة بعد أن درس واطلع وأصبح على حظ وافر من العلم أراد أن يكون نافعاً للناس وللغة العربية وللعرب والإسلام بوجه خاص، وكان من هؤلاء النوابغ القلائل في تاريخ الشرق، بل في تاريخ العالم الذين أضافوا إلى تراث العقل الإنساني ثروة جديدة.

ولما كانت الطباعة أهم ما يعتمد عليه في أداء رسالته، فقد عنى بأن تكون له مطبعة، واستحضر في ذلك الحين بعض الأدوات المطبعية، وتنحى عن التدريس وإدارته في المدرسة العبيدية. وأخذ يستعد لتأسيس مجلة يحقق بها هذه الرسالة إلى جانب ما يضعه من مؤلفات.

وفي أول سبتمبر عام ١٨٩٢ أصدر العدد الأول من هذه المجلة. وقد صدره بمقدمة قال فيها:

«لا بد للمرء فيما يشرع فيه من فاتحة يستهل بها، وخطة يسير عليها، وغاية يرمي إليها. أما فاتحتنا فحمداً لله على ما أسبغ من نعمه، وأفاض من كرمه. والتوسل إليه أن يلهمنا الصواب وفصل الخطاب. وأما خطتنا فالإخلاص في غايتنا، والصدق في لهجتنا، والاجتهاد في وفاء

حق خدمتنا. ولا غنى لنا في ذلك عن معاضدة أصحاب الأقلام من كتبة هذا العصر في كل صقع ومصر.

«أما الغاية التي نرجو الوصول إليها، فإقبال السواد على مطالعة ما نكتبه، ورضاؤهم بما نحتسبه وإغضاؤهم عما نرتكبه، فإذا أتيح لنا ذلك كنا قد استوفينا أجورنا، فننشط لما هو أقرب إلى الواجب علينا..». وبعد أن تحدث عن أبواب المجلة قال: «وقد دعونا مجلتنا هذه الهلال لثلاثة أسباب: أولاً ــ تبركاً بالهلال العثماني الرفيع الشأن.. ثانياً ــ إشارة لظهور هذه المجلة مرة في كل شهر. ثالثاً ــ تفاؤلاً بنموها مع الزمن حتى تتدرج في مدارج الكمال. فإذا لاقت قبولاً وإقبالاً أصبحت بدراً كاملاً بأذن الله».

خدماته للعرب والإسلام

وكان في النشأة الأولى لهذه المجلة يتولى كل أمورها بنفسه من تحرير وإدارة ومكاتبات مما لا يستطيعه إلا جماعة من الرجال، ولكنه كان يواصل العمل بلا ملل. ولما اتسعت شؤونها عهد بإدارتها إلى شقيقه، واستخدم معه آخرين وعكف هو على التحرير والتأليف. وقد وضع بعد تأسيسه الهلال روايات تاريخ الإسلام، وكتاب التمدن الإسلامي في خمسة أجزاء، وكتاب العرب قبل الإسلام، وعلم الفراسة الحديث، ومشاهير الشرق في جزءين، وتاريخ آداب اللغة العربية في أربعة أجزاء، وأنساب العرب القدماء، وطبقات الأمم، وعجائب الخلق والجزء الأول من تاريخ انجلترا.

وقد صدر من روايات تاريخ الإسلام ثماني عشرة رواية عدا أربع روايات خارجة عن هذه السلسلة، وهي: المملوك الشارد، وأسير المهدي، واستبداد المماليك، وجهاد المحبين. وقد نقلت معظم مؤلفاته إلى كثير من اللغات.

والذي يطلع على آثار هذه العصامي النابغة من بحوث ومؤلفات يدهش كيف استطاع أن يقوم بها مع أعماله في الهلال خلال اثنين وعشرين عاماً فقط، ولكنه النبوغ الذي يقف عند حد ولا يعرف للزمن حساباً، والجهود المضنية، والنفس العظيمة التي يتعب الجسم في تحقيق مرادها حتى يذوب ويفنى. ولقد ذابت روح زيدان وفنى جسمه قبل الأوان، وهو لم يتجاوز من عمره الثالثة والخمسين.

لم يعرف جرجي زيدان التعب طول حياته، وقد انتفع ونفع بكل ساعة من وقته، فكانت حياته على رغم قصرها مباركة، وكانت جهوده على رغم صعوباته مثمرة. ولقد جاءه يوماً مستشرق يزوره، فلما رآه سأله مستغرباً: «أنت جرجي زيدان؟» فأجابه: «نعم» فقال المستشرق: «كنت أنتظر أن أرى شيخاً ذا لحية بيضاء، لأن من يطلع على مؤلفاتك لا يقدر عمرك بأقل من ثمانين سنة»!

هذا هو العصامي جرجي زيدان: نشأ فقيراً سدت أمامه أبواب المعارف، فلم يحل الفقر ولا تحالف الشدائد والعقبات دون ما يريد، ووثب من الصناعة والعمل إلى عبقرية الفكر ومجد العلم والأدب، من ساحة البرج ببيروت، إلى ميادين الثقافة العليا، ومن بيروتي صغير لابس السروال، إلى عالم كبير ونابغة جليل يفخر به الشرق أجمع، ومن فتى مجهول يكافح في سبيل العيش وفي سبيل التعليم، إلى كهل عظيم يضع أنفس المؤلفات في تاريخ الشرق وتاريخ الإسلام وآداب اللغة العربية ويبتكر من المؤلفات ما لم يسبقه إليه أحد، ويخطب وده العلماء والأدباء ومعاهد العلم الكبرى، وتنتدبه الجامعة المصرية القديمة ليدرس لطلبتها تاريخ الإسلام، ثم تحتفظ بما وضعه لها من دروس حين وقف في سبيل انتدابه الجامدون!

هذا هو العصامي جرجي زيدان الذي سجل تاريخ الشرق اسمه بين العلماء الخالدين والعصاميين البارزين، والذي صح فيه قول القائل:

إن الفتى من يقول هأنذا
ليس الفتى من يقول كان أبي







ذات الصّواري

بين التاريخ وفن الحرب
(٣٤هـ - ٦٥٥م)

اللواء البحري المتقاعد وفيق بركات*

معركة ذات الصواري من المعارك الحاسمة المشرِّفة في تاريخنا العربي الإسلامي، لكن مشكلتها الأساسية هي التناقضات الغريبة التي نجدها في المراجع التاريخية العربية والأجنبية حولها. فقد اختلف المؤرخون حول أسبابها ومكان حدوثها وتسميتها، واتفق معظمهم على سير المعركة ونتائجها، من دون أن يحدث إجماع على ذلك، لكن أحداً من المؤرخين، الأقدمين والمحدثين، لم يدرس هذه المعركة من وجهة نظر فن الحرب البحرية، الأمر الذي دفعنا إلى تقديم هذه الدراسة الموجزة المركزة، فأوردنا ما اختلف فيه المؤرخون ودرسنا ما اتفقوا عليه، لاستكمال قصة هذه المعركة وسد ثغرة هامة في تاريخها.

(*) باحث عسكري متخصص في الشؤون البحرية صدرت له بعض المؤلفات والكتب المترجمة.

١ ـ الخلاف التاريخي حول أسباب المعركة وموقعها:

يجمع المؤرخون على أن معركة ذات الصواري كانت معركة فاصلة حاسمة بين العرب والروم تقرر فيها مصير البحر الأبيض المتوسط[١] «وأن المعركة انتهت بانتصار حاسم للمسلمين[٢] وتعتبر حداً فاصلاً في تاريخ البحر المتوسط، ذلك أن قنسطانز كان يرمي إلى تحطيم قوة المسلمين البحرية في مهدها ولو أنه وُفق في ذلك لظلت سيادة البحر المتوسط أو حوضه الشرقي على الأقل بيد البيزنطيين دون المسلمين»[٣].

ولكنهم يختلفون في أسباب قيام تلك المعركة ومكان حدوثها:

ـ الدكتور إبراهيم العدوي، أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة القاهرة، يذكر: «وعجّل قنسطانز باستخدام أسطوله حين ترامت إليه سنة ٦٥٥م أنباء استعدادات بحرية هائلة يعدها معاوية بن أبي سفيان والي الشام إذ ذاك لضرب القسطنطينية ذاتها عاصمة الروم، وجهد قنسطانز على أن يتلافى هذا الخطر العربي المقبل على عاصمته قبل اقترابه منها، وَعَوَّلَ على الخروج قاصداً الشام ليدمر الأساطيل العربية هناك قبل إبحارها من قواعدها... أعاد معاوية حشد قواته في حين وصلت سفن من مصر إلى سواحل الشام وخرج الأسطول العربي الشامي ـ المصري قاصداً القسطنطينية[٤]...

ـ الدكتور أنور عبد العليم أستاذ علوم البحار بكلية العلوم ـ جامعة الملك عبد العزيز (السعودية) يذكر: «... إذ حاول امبراطور الروم قسطنطين (كونستانز) الثاني إرجاع مدينة الإسكندرية من العرب فجهز حملة ٧٠٠ ـ ١٠٠٠ سفينة تصدت لها ٢٠٠ سفينة إسلامية مصرية وسورية بقيادة عبد الله بن أبي السرح وتمكنت من هزيمة البيزنطيين»[٥].

ـ ويؤيده في ذلك جميل خانكي إذ يقول: «لعل أولَ انتصار بحري أحرزه الأسطول المصري في ذلك العهد عند قدوم الامبراطور البيزنطي قنسطانت الثاني بن هرقل لغزو الإسكندرية... على رأس أسطول مكون من ١٠٠٠ سفينة وفي رواية أخرى ٥٠٠ فقط... وقد اشترك معاوية في هذه الموقعة البحرية إذ أنه لما بلغه مقدم ابن هرقل خرج من الشام بأسطوله وانضمت وحداته إلى مراكب عبد الله بن سعد»[٦].

ـ بينما يرى المؤرخان الدكتور أحمد مختار العبادي والدكتور السيد عبد العزيز سالم رأياً مخالفاً تماماً في قولهما: «...ولما كانت الموقعة قد دارت بالقرب من ساحل ليكيا فالأرجح أن هناك سبباً آخر دعا العرب إلى الاقتراب من هذا الساحل بآسيا الصغرى، وأعتقد أنهم كانوا يسعون إلى الحصول على مصدر جديد للأخشاب الجيدة اللازمة لصناعة السفن مثل خشب البلوط الصلد اللازم لصناعة الصواري والقرايا والأقواس»[٧].

«كما أن التفسير الذي أورده الدكتور إبراهيم أحمد العدوي للاشتباك البحري في ذات الصواري ويتلخص في أن أخباراً ترامت إلى قنسطانز باستعدادات بحرية هائلة وأخرى برية يقوم بها معاوية لضرب عاصمة البيزنطيين الضربة الأخيرة يبدو لنا غير مقنع لأنه لا يستند لا على أسانيد وثائقية ولا حتى على استدلالات منطقية»[٨]. ويرى المؤرخان المذكوران: «أن قنسطانز قد ترامت إليه أنباء هذه الحملة (يقصد حملة للحصول على الأخشاب) بدليل أنه كان متأهباً لاستقبال سفن الأسطول الإسلامي بسفن لم ير العرب مثل عددها قط، ولو أن العرب كانوا ينوون حقاً غزو القسطنطينية لما غامروا بالخروج في سفن قليلة نسبياً ولما هالهم عدد السفن البيزنطية...»[٩].

أما ما يتعلق بموقع المعركة فهناك أيضاً تباين واضح في تحديده، فنرى الدكتور أنور عبد العليم يقول: «وسميت هذه الموقعة بذات الصواري لكثرة صواري السفن التي استخدمت فيها[١٠]» ويرى الرأي نفسه السيد جميل خانكي: «... عرفت في المراجع العربية بغزوة ذات الصواري لكثرة ساريات السفن التي التحمت في القتال، واشتهرت في المصادر الأوروبية بوقعة فونيكه (phoenicus) لوقوعها بالقرب من ثغر فونيكه غرب الإسكندرية[١١]».

ـ وقد أورد الدكتور إبراهيم العدوي نفس

الرأي: «عرفت بوقعة ذات الصواري بسبب كثرة صواري السفن المشتركة في القتال[١٢]

— أما الدكتور العبادي والدكتور سالم فيريان رأياً مخالفاً تماماً بالاستناد إلى مراجع تاريخية معروفة: «... ونستدل على هذا الرأي بأن كلمة ذات الصواري لم تطلق نسبة إلى كثرة صواري السفن كما يزعم فريق من المؤرخين العرب[١٣] ولكن نسبة إلى موقع بهذا الاسم استنتاجاً من قول الطبري (فركب في مركب وحده ما معه إلا القبط حتى بلغوا ذات الصواري فلقوا جموع الروم في خمسماية مركب أو ستمائة)[١٤] وقوله أيضاً: «وأقام عبد الله بذات الصواري بعد هزيمة الروم[١٥]، ولا يمكن أن يسمى موضع بهذا الاسم إلا لكونه مصدراً لأخشاب تصنع منها الصواري...»[١٦](*)

٢ — سير المعركة وأحداثها الهامة:

كان الامبراطور قنسطانز الثاني يؤمن بأن المقادير قد ادّخرته لإنقاذ دولته من ضعفها ودفع خطر الأسطول العربي عنها، فبادر بإعداد الوسائل التي تمكنه من المحافظة على وحدة بلاده والقضاء على طلائع البحرية العربية التي هجمت على دياره، وأخذ في تدعيم قوة الروم البحرية وبعث الحياة في قواعد بلاده البحرية واتخذ الإجراءات التي تكفي خلق تعاون بحري بين آسيا الصغرى وبلاد اليونان وأعاد بناء أسطول قوى عمد إلى اتخاذه سبيلاً لطرد العرب من مياه البحر الأبيض المتوسط واسترداد سيادة الروم على ذلك البحر.

«وعجل قنسطانز باستخدام أسطوله حين ترامت إليه في سنة ٦٥٥م أنباء استعدادات بحرية هائلة يعدها معاوية بن أبي سفيان، والي الشام إذ ذاك لضرب القسطنطينية نفسها عاصمة الروم وجهد قنسطانز على أن يتلافى هذا الخطر العربي المقبل على عاصمته قبل اقترابه منها وعوّل على الخروج قاصداً الشام ليدمر الأساطيل العربية هناك قبل إبحارها من قواعدها[١٧]. إلا أن المقريزي في كتابه المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ج ١ ص١٦٩٠ يذكر توجهاً آخر، حيث يقول في وصف للمعركة: «قدم قسطنطين بن هرقل لغزو الإسكندرية سنة ٣٤هـ على رأس أسطول من ١٠٠٠ سفينة...».

وقد نشط وكلاء الروم في الشام لعرقلة استعدادات العرب البحرية وكان معاوية قد حشد معداته البحرية في مدينة طرابلس فقام اثنان من الروم بفتح سجن المدينة وأطلقا سراح عدد كبير من أسرى الروم ثم هاجموا دار الحاكم العربي وأحرقوا العدد والعتاد التي بذل معاوية في جمعها كثيراً من الجهد والعناء ثم فروا جميعاً إلى آسيا الصغرى[١٨]، لكن الأسطول العربي ظل سليماً وبذلك أعاد معاوية حشد قواته، على حين وصلت سفن من مصر بقيادة واليها عبد الله بن أبي السرح إلى سواحل الشام وخرج الأسطول العربي (الشامي المصري) قاصداً القسطنطينية(**)، وعندما وصل الأسطول العربي إلى ليكيا بآسيا الصغرى ألقى مرساه عند فوينكس (phoenix)(***)، حيث بلغه نبأ اقتراب أسطول الروم وعلى رأسه الامبراطور قنسطانز نفسه[١٩].

وكان قنسطانز بن هرقل قد «خرج في جمع لم يجتمع للروم مثله منذ كان الإسلام»[٢٠] وكان أسطوله يتألف من خمسماية سفينة مزودة بآلات الحرب، راع العرب منظرُها ولا سيما الذين سبق لهم أن اشتبكوا مع الروم في معارك بحرية، ووصف أحد المشتركين في الحملة البحرية العربية شعوره حين تقابل الأسطول العربي مع سفن الروم قائلاً: «فالتقينا في البحر فنظرنا إلى مراكب ما رأينا مثلها قط»[٢١].

وكانت مراكب المسلمين مئتي مركب ونيفاً فقام عبد الله وقال للناس: «بلغني أن ابن هرقل قد اقبل عليكم في ألف مركب فأشيروا علي» فقام رجل من أهل المدينة كان متطوعاً مع عبد الله فقال: «أيها الأمير إن الله مع الصابرين» فقال عبد الله: «اركبوا»[٢٢]، وكان قائد أسطول الشام في معركة ذات الصواري بسر بن أرطاة»[٢٣].

وحين التقى الجمعان في البحر كانت الرياح غير ملائمة فقضى العرب والروم ليلتهما انتظاراً لما يسفر عنه الصباح، وأخذا يستعدان فيها ويعملان على تقوية الروح المعنوية، فبات العرب يصلّون ويدعون الله، في حين قضى الروم ليلتهم يضربون بالنواقيس، وفي صبيحة اليوم التالي دارت المعركة، واشترك فيها الامبراطور قنسطانز

نفسه حيث أخذ يصدر من سفينته تعليمات لقتال العرب ويتابع منها الأنباء بانتظام عن سير المعركة[٢٤].

بدأ العرب القتال بالأقواس والسهام فأدرك قنسطانز تفوق جنده عليهم لأن العرب يجيدون هذا السلاح في الحروب البرية فقط وأن الموقف الآن بحرياً وليس برياً، وأن ذخيرتهم سوف تنفذ سريعاً، وتحقق ما رآه قنسطانز إذ اضطر العرب لاستبدال الأقواس والرماح التي نفذت بالحجارة وقذف العدو بها، وهنا أيقن الامبراطور مرة أخرى أن الفوز حليف أسطوله.

غير أن العرب حين رأوا نفاذ ذخيرتهم من الحجارة وأن العدو ما زال بعيداً عن متناول سفنهم وأنه يراوغ ويماطل لإنهاك قواهم ربطوا سفنهم بعضها إلى بعض وقذفوا خطاطيف في البحر جذبوا بها سفن الروم إليهم ثم أخذوا من ظهور السفن المتلاحمة ميادين قتال أشبه بميادين البر. وحين وصلت أنباء تلك الخطة الجديدة إلى الامبراطور قنسطانز أدرك فشل حملته وأن الهزيمة لا شك محيقة بجنده»[٢٥].

«فلقوهم فاقتتلوا بالنبل والنشاب وتأخر ابن هرقل لئلا تصيبه الهزيمة وجعلت القوارب تختلف إليه بالأخبار فقال: «ما فعلوا؟» قالوا: «قد اقتتلوا بالنبل والنشاب» فقال: «غَلبت الروم» ثم أتوه فقال: «ما فعلوا؟» قالوا: «قد نفذت الحجارة وربطوا المراكب بعضها ببعض يقتتلون بالسيوف» قال: «غُلبت الروم»[٢٦].

وتحقق استنتاج قنسطانز إذ وثب العرب على الروم بالسيوف والخناجر وأعملوا فيهم التقتيل واشتد الصراع وكثر القتلى حتى وصف شاهد عيان هذه المعركة قائلاً: «رجعت الدماء إلى الساحل تضربها الأمواج، وطرحت الأمواجُ جثثَ الرجال ركاماً»[٢٧] و «... وقتل عدد وفير من الطرفين المتحاربين إلى أن انهزم ابن هرقل جريحاً ولم ينج من الروم إلا الشريد»[٢٨].

وقد أبدى الفريقان المتحاربان من صنوف التفاني في الواجب وضروب الشجاعة ما سجلته مراجع العرب والروم على السواء[٢٩]. ومن الأمثلة على ذلك أن العرب نسوا في غمرة المعركة مخاوفهم واستماتوا في الدفاع عن سفينة القيادة التي أقلت والي مصر عبد الله بن أبي سرح، فقد عمد الامبراطور قنسطانز حين علم بخطوة العرب الجديدة إلى نشر الفوضى في صفوفهم بالقضاء على سفينة القيادة عندهم، فأمر جنده بقذف خطاف علق على سفينة أمير البحر العربي عبد الله بن أبي السرح وأخذ الروم يجذبون المركب العربي إليهم. وكاد الروم ينجحون في أسر مركب القيادة العربي لولا شجاعة أحد الجنود العرب ويدعى «علقمة بن يزيد العطيفي» إذ رمى هذا الجندي بنفسه على السلاسل التي كانت تجذب سفينة القيادة العربية وأخذ يعمل فيها القطع برغم ما تعرض له من ضربات العدو وسهامه وكُلِّلَ عملُ علقمة بالنجاح، إذ قطع السلسلة وأنقذ سفينة القيادة العربية من الوقوع في الأسر. ونال هذا الجندي العربي ثناء زوجة أمير البحر التي تسمى بثينة حيث كانت على ظهر السفينة أثناء القتال وقد شاءت الأقدار فيما بعد أن يظفر ذلك الجندي بزواجه من بثينة بعد وفاة زوجها[٣٠]، وهلك عنها علقمة فتزوجها كريب بن أبرهة[****]، وقد حضر المعركة.

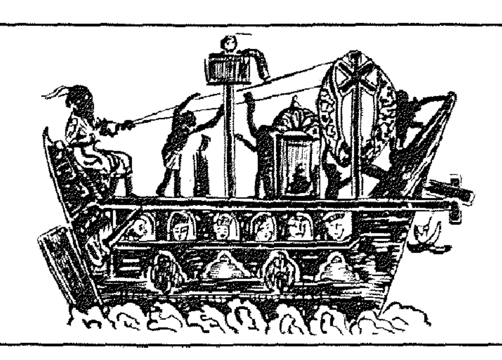
وأظهر الروم في تلك المعركة تفانياً في الدفاع عن سفينة قيادتهم إذ بعد نجاح العرب في إنقاذ سفينة قيادتهم هجموا على الروم بشدة واقتحموا السفينة المقيم عليها الامبراطور وأعملوا القتل في جندها، وكاد الامبراطور يقع في قبضة العرب لولا أنه تنكر باستبدال زيّه بملابس ابن أحد ضاربي الطبول على سفينة وهرب من المعركة على مركب آخر فرّ به إلى صقلية[٣١].

وبفرار الامبراطور قضى العرب على تلك (الأرمادا) التي أعدها الروم، وخرجوا ظافرين من معركة حامية الوطيس.

وتجلت أولى النتائج الهامة التي ترتبت على انتصار الأسطول العربي في تلك الواقعة الفاصلة في تدعيم سيادة العرب على الشواطىء الشرقية للبحر الأبيض المتوسط وطلّق أباطرة الروم فكرةَ استرداد البلاد التي كانت تابعة لهم من يد العرب وفضلوا الاعتراف بالأمر الواقع.

٣ ــ المعركة وفن الحرب البحرية:

إن دراسة معركة ذات الصواري من وجهة نظر فن الحرب البحرية الحديثة تقودنا إلى



النتائج التالية:

(أ) تصميم الروم البيزنطيين على وضع حد لنشاط البحرية العربية وكسر شوكتها نهائياً بعد تحقيق التعاون بين آسيا الصغرى واليونان، لكن تقديراتهم وخططهم فشلت في تحقيق الهدف المنشود.

(ب) دلت المجهودات العربية على أن الأسطول العربي قد أصبح قوة كبيرة وحقيقة واقعة خاصة بعد أن بلغ التعاون بين الشام ومصر أوجَه.

(جـ) خاض الجانبان عملية بحرية تسمى في فن الحرب الحديثة (عملية تدمير قوى العدو في البحر) بعد أن كان البيزنطيون يخططون لخوض (عملية تدمير قوى الأسطول العربي في القواعد).

(د) يستدل من دراسة المراجع التاريخية أن الروم قد فرضوا توقيت المعركة لكن النتيجة جاءت نصراً للعرب.

(هـ) استخدم الأسطول العربي أسلحة البر في البحر. (القوس والنشاب والمقلاع والحجارة والسيوف والخناجر).

(و) خلال سير المعركة ابتكر البحارة العرب من وحي الموقف في ساحة القتال أسلوباً تكتيكياً مناسباً إذ ربطوا السفن إلى بعضها وجذبوا إليها سفن العدو ومدوا الجسور وحولوا المعركة إلى ما يشبه المعركة البرية.

(ز) اعتمد البحارة العرب على الشجاعة والقوة والتضحية والمبادرة الفردية والإيمان وعقيدة الجهاد.

(ح) استشار أمير البحر العربي مرؤوسيه في التصدي للأسطول المعادي قبل اتخاذ القرار بالهجوم، وهذا يشبه إلى حد ما أسلوب القادة في اتخاذ قرار المعركة في العصر الحديث.

(ط) طبق أمراء البحر العرب مبادىء التعاون على مستويات عالية استراتيجية وعملياتية بين قطرين وبين أسطولين انضويا تحت قيادة واحدة (أمير البحر عبد الله بن أبي سرح والي مصر).

(ي) لجأ معاوية إلى تجهيز القوات وحشدها تمهيداً للانطلاق من طرابلس ثم اشترك في المعركة نظراً لأهميتها (حسب بعض المصادر التاريخية)[٣٢]: مستوى قيادي مناسب للعملية(*****)

(ك) طبق أمراء البحر العرب مبادىء التوجيه المعنوي والديني قبل بدء الحرب (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة).

(ل) إن الإبحار بالأساطيل الكبيرة على هذه المسافات البحرية الشاسعة يدل على خبرة واسعة في القيادة والسيطرة والإمداد والملاحة البحرية والاستطلاع لدى بحارة الأسطول العربي الإسلامي.

(م) استخدم الطرفان الجواسيس لمعرفة استعداد وتجهيزات وتحركات كل طرف.

(ن) إن استخدام الأسطول البحري لتحقيق أهداف استراتيجية كبرى يدل على مدى اتساع الأفق السياسي والعسكري للقادة العرب في ذلك التاريخ.

(س) إن الخبرات المكتسبة والدروس المستفادة من هذه العملية البحرية الكبيرة قد ساعدت الأسطول العربي لاحقاً في غزو القسطنطينية وفي خوض المعارك البحرية اللاحقة وساعدت إلى حد كبير في ترسيخ المجد البحري العربي في صفحات التاريخ العالمي.

(ع) وبصورة عامة كانت مراحل المعركة تدريباً ميدانياً للأسطول العربي الإسلامي.

المــراجــع

١ ــ د. إبراهيم أحمد العدوي: قوات البحرية العربية.
٢ ــ جميل خانكي: تاريـخ البحرية المصرية.
٣ ــ الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير): تاريـخ الرسل والملوك.
٤ ــ د. أنور عبد العليم: الملاحة وعلوم البحـار عند العرب.
٥ ــ د. احمد مختار العبادي؛ د. السيد عبد العزيز سالم: تاريـخ البحرية الإسلامية في مصر والشام.
٦ ــ فتحي عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية.
٧ ــ الكندي: كتاب الولاة وكتاب القضاة.
٨ ــ ابن الأثير (علي بن أحمد بن أبـي الكرم): الكامل في التاريـخ.
٩ ــ المقـريزي (تقي الدين أحمـد بن علي): المـواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار.
١٠ ــ د. علي حسني خربـوطلي: الإسلام في حـوض المتوسط.
١١ ــ ابن عبد الحكم: فتوح مصر.

الهوامش

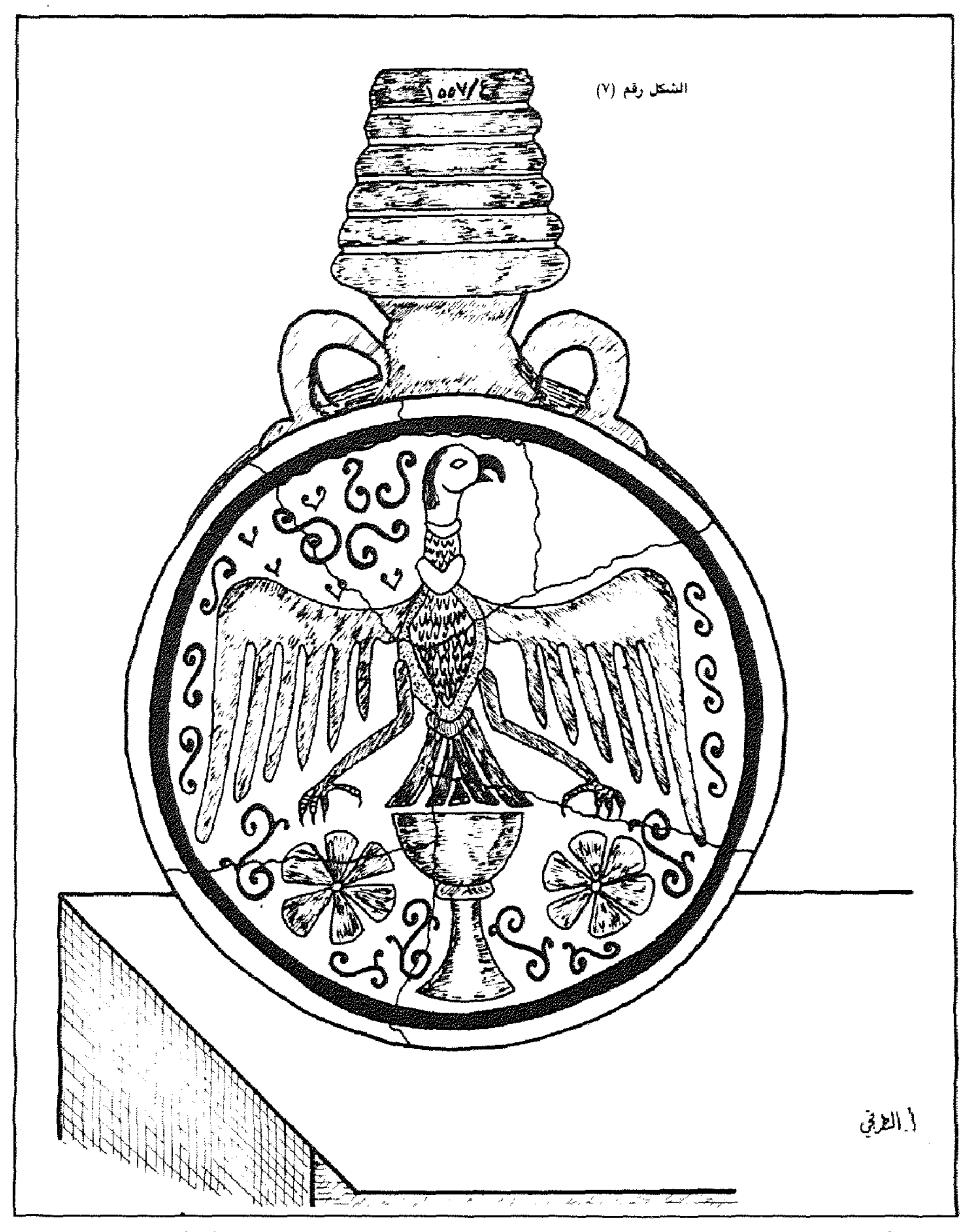
(١) العدوي، ص ٣٦.
(٢) الطبري، ج ٣ ص ٦٩.
(٣) فتحي عثمان، ج ٢ ص ٣٢٨ (الحدود الإسلامية البيزنطية).
(٤) العدوي، ص ٣٨.
(٥) د. أنور عبد العليم: الملاحة وعلوم البحار عند العرب، ص ٩٢.
(٦) تاريـخ البحرية المصرية: جميل خانكي، ص ١٣٧.
(٧) تاريـخ البحرية الإسلامية في مصر والشام: د. عبادي ود. سالم، ص ٢٩.
(٨) تاريـخ البحرية الإسلامية في مصر والشام: د. عبادي ود. سالم، ص ٢٩.
(٩) تاريـخ البحرية الإسلامية في مصر والشام: د. عبادي ود. سالم، ص ٣٠.
(١٠) د.عبد العليم، ص ٩٢.
(١١) خانكي، ص ١٣٧.
(١٢) العدوي، ص ٤٢.
(١٣) الكندي: كتاب الولاة وكتاب القضاة، ص ١٣.
(١٤) الطبري، ج ٥ ص ٧٠.
(١٥) الطبري (نفسه)؛ ابن الأثير، ج ٣ ص ١١٨.
(١٦) عبادي وسالم، ص ٣٠.
(١٧) العدوي، ص ٣٧ ــ ٣٨ (سبق ذكره: لضرورة السرد التاريخي للأحداث).
(١٨) العـــدوي، ص ٣٨، (Finaly. History of Greece. 377)
(١٩) العدوي، ص ٣٨.
(٢٠) الطبري، ج ٥ ص ٦٩.
(٢١) الطبري، ج ٥ ص ٦٩.
(٢٢) المقريزي، ج ١ ص ١٦٩ (بعرض المراجـع تذكر ١٠٠٠ سفينة وبعضها ٥٠٠).
(٢٣) د. علي حسني خربوطلي: الإسلام في حوض البحر المتوسط، ص ١١.
(٢٤) الطبري، ج ٥ ص ٧٠.
(٢٥) ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٦٠.
(٢٦) المقريزي، ج ١ ص ١٦٩.
(٢٧) الطبري، ج ٥ ص ٧٠.
(٢٨) ابن الأثير: (الكامل في التاريـخ)، ج ٣ ص ٤٨.
(٢٩) العدوي، ص ٥٠.
(٣٠) المقريزي، ج ١ ص ١٦٩ (اوردها خانكي بسيسه ووردت في بعض المصادر بثيثه).
(٣١) العدوي، ص ٤١.
(٣٢) خانكي، ص ١٣٧.

(*) حول الآراء الأخرى عن موقـع المعركة، انظر الهامش في نهاية الدراسة.
(**) ملاحظة: لقد تبنينا في دراستنا فكرة أن المعركة نشبت بالقرب من آسيا الصغرى.
(***) أي: العنقاء (أوردناها بالفرنسية والإنكليزية).
(****) شأن العرب بعد الإسلام في الحروب حين كانوا يتزوجون الأيامى زوجات الأبطال والشهداء جبراً لخواطرهن وصوناً لكرامتهن.
(*****) وقد تقصى أخبار معركة ذات الصواري جاستوت فييت (أستاذ اللغات الشرقية في جامعة باريس والمدير السابق للمتحف الوطني بالقاهرة) فذكر في الجزء الذي الفه عن تاريـخ الوطن المصري في [illegible]عة جبرائيل هانوتو: «إن ماريوس كانار تعقب ذكر هذه المعركة فتوصل إلى أن الجنود البيزنطيين خرجوا [illegible] الأسطول إلى البر ودخلوا إلى الإسكندرية فخف إليهم عمرو بن العاص بجيش بري وكان يُعينه أسطول بحري عربـي فهزم العربُ الرومَ في البر ورمى الروم بأنفسهم على مراكبهم وقتل رئيسهم البطريق مانويل في معركة جرت في شوارع الإسكندرية بين العرب والروم...». وناقش نفس المؤرخ اسم معركة ذات الصواري فقال: «إن العرب تسميها ذات الصواري لأن اعمدة المراكب البيزنطية والعربية قد التحم بعضها ببعض في هول التقابل...»، لكننا لم نورد تلك الآراء في متن الموضوع لمخالفتها للتاريـخ والمنطق. (ص ٢٨ و ٢٩ من المرجـع المذكور).

المطرات في العهود الإسلامية

"نماذج من معروضات متحف دمشق الوطني"

أحمد فرزة الطرقجي



احمد فرزة الطرقجي المديرية العامة للآثار والمتاحف مديرية التنقيب والدراسات الاثرية
دمشق ــ سورية

تعتبر صناعة الفخار من أرقى الصناعات التي أوجدها الإنسان ومارسها، ولعل خير ما شُبِّهَتْ به صناعة الفخار هو خلق الإنسان. ففي الآية الكريمة: «الإنسان من صلصال كالفخار»[1].

ولئن كانت الحاجة أم الاختراع عندما صنع الإنسان أوانيه الحجرية الأولى، فإن صناعة الفخار جاءت مصادفة بحتة ونتيجة لتطور عدة مراحل من صنع الأواني. ففي البداية صنع الإنسان الفخار بتشكيله بيديه، وجففه بأشعة الشمس، ثم بالشي فوق النار، مما نتج عنه آنية غير متناسبة الشكل وسريعة العطب. ثم كان اكتشاف دولاب الخزاف البطيء، وفرن الشي المغلق، الأمر الذي أعطى الأواني شكلاً متجانساً وحرارة متساوية.. وتطور دولاب الخزاف فأصبح سريعاً مما ساهم في تلبية الطلب المتزايد على الأواني ذات الاستعمال اليومي والرخيصة التكاليف.



والأواني الفخارية رغم شيها الجيد إلا أنها سهلة الكسر، تافهة القيمة المادية، لذلك بقيت كسرها وشظاياها في مواقعها عبر القرون ممتنعة على الفناء، وبما أن دراسة الفخار وخصائصه وقرائنه الأثرية تسهم في تحديد هوية وأفق انتشار الثقافات التي يتنسب إليها، فقد غدت هذه الدراسة العمود الفقري لعلم الآثار.

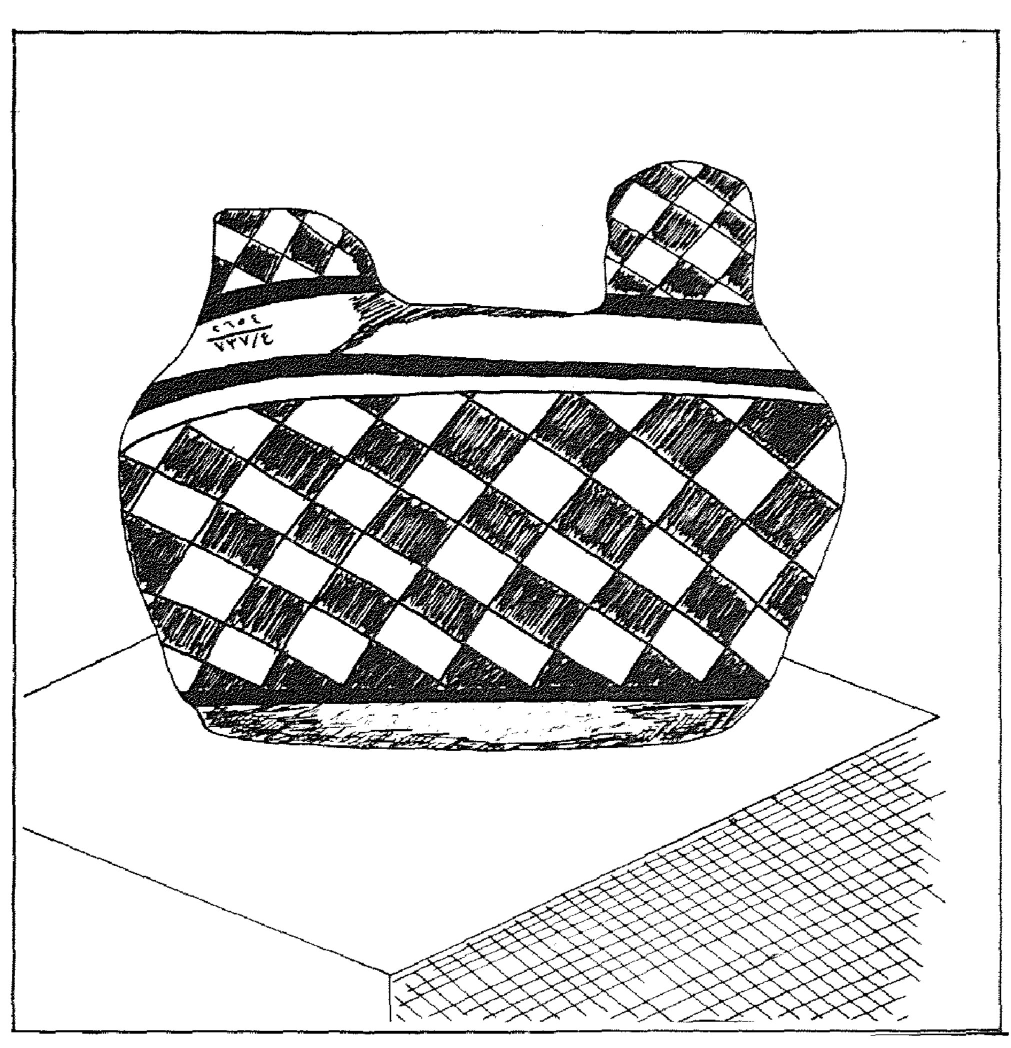
وقد برع الإنسان القديم بصناعة الفخار، وتفنن به إلى درجة الإبداع. وأخذ يزينه ويبتكر في تشكيله. ولقد ثبت من خلال تاريخ مختلف شعوب العالم أن مهنة صنع الفخار كانت مهنة تقليدية متوارثة، وهذا ما ساعد على اعتماد الفخار كوسيلة للتعرف على ثقافة الشعوب وعهودها. فكل حضارة ولها صناعتها الفخارية التقليدية الخاصة بها[2].

ولعل أحدهم لم يخطىء عندما قال: إن شخصية الشعوب القديمة تتوضح من خلال صناعة الفخار. وهكذا استمرت صناعة الفخار راقية عند الأمم حتى أتى العرب المسلمون فأخذوا يتفننون ويبدعون في صناعة الفخار وتزيينه بالحز والوخز والقطع وإضافة الحبيبات والأشكال المجسمة والتلوين إلخ... ثم ابتكروا صب الفخار بالقالب، وأحدثوا على سطح أواني الفخار زخارف بارزة نباتية وحيوانية وكتابية وهندسية في غايةٍ من الدقةِ في الصنعة، والجمالِ في الأداء والإخراج. فصنعوا من الفخار والجرة والطِسْت والقَدَح والأبريق والمَطَرَةْ وغيرها من الأواني التي بقيت تشهد على روعة الصناعة ومهارة الصانع.

المطرات الإسلامية سماتها وأشكالها

الماء أحد أهم عناصر الحياة وحيث وجد الماء وجدت الحضارة، والماء نعمة من الله، ففي الآية الكريمة: «وجعلنا من الماء كل شيء حي»[3]، ولهذا سكن الإنسان منذ البدء قرب منابع المياه العذبة وأقام مستوطناته الأولى على ضفاف الأنهار، وعندما دعته الضرورة للإبتعاد عن مصادر المياه، أثناء رحلاته للصيد أو للتجارة أو الهجرة، كان لزاماً عليه أن يجد وسيلة ينقل بها الماء معه حيث رحل. فكانت قرب الماء المصنوعة من جلود الحيوانات والتي كان يخيطها بشكل يسمح له بحفظ الماء وإملائها وإفراغها بسهولة وبقي يستعملها إلى أن عرف خاصية الفخار وجودته في القدرة على حفظ الماء، لذلك كانت أشكال الأواني الأولى مستوحاة من قربة الجلد ــ الشكل رقم ــ ١ ــ فهي مطرة بدائية الشكل تشبه في تكوينها شكل القربة المصنوعة من الجلد، ومع التطور الذي رافق حياة الإنسان تطورت المطرات حسب الحاجة والمفهوم الجمالي لديه.

ولئن كان للفخار الإسلامي خصائصه المميزة وصناعته المبتكرة، إلا أننا نلمح البدايات الأولى للشكل المبدئي للمطرة ضمن المكتشفات التي عثر عليها في أحد مدافن رأس الشمرة «أوغاريت»[4] وتعود لمنتصف القرن الثالث عشر ق . م، ونراها في بقايا الفخار الفرثي الذي عثر عليه في بعض



الشكل رقم (١)

□ مطرة ذات شكل بدائي تشبه القربة تعود للقرن السابع الهجري ــ الثالث عشر للميلاد لم يعرف مكان وجودها، منفذة باللون الأسود وبرسوم هندسية عضوية ــ الارتفاع: ٢١,٥ سم، الطول: ٢٥,٥ سم.

مناطق العراق (بين القرن الأول ق . م والقرنين الأول والثاني الميلادي) إذ عثر في بابل على أشكال مختلفة من الأواني الفخارية الفرثية من بينها مطرات قرصية الجسم[٥].

ولعل المسلمين في صناعتهم للمطرات اقتبسوا فكرتهم من هذه المطرات شكلها العام ثم قاموا بتطويرها وتصنيعها حسب أسلوبهم الخاص ونظرتهم الفنية الإبداعية في الإقتباس والتطوير.

وهنا لابد لنا قبل البحث في سمات وأشكال المطرات الإسلامية أن نُعَرِّفَ المطرة وما هي عناصر تكوينها .. ففي اللغة، المطرة هي القربة؛ ووسط الحوض الذي يملأ بماء المطر.

وفي المصطلح، هي إناء جميل له شكل كروي مفرطح وله رقبة ضيقة وعروتان ــ (الصورة. رقم ــ ١ ــ) أو يكون شكلها كقرص مقطوع من أسطوانة حيث توضع الرقبة في السطح الأسطواني وتكون العروتان إلى جانبي الرقبة ــ (الشكل رقم ــ ٢ ــ) المطرة ع / ٩٧٧١[٦] ويطلق على المطرة أيضاً أسم الزمزمية، لأن المسافرين إلى ديار الحجاز والذين يستعملونها في موسم الحج يحرصون على إملائها من ماء زمزم[٧].

هذا من حيث المبدأ العام، أما الصناع المسلمون فإنهم أبدعوا في تشكيلهم للمطرات من حيث إخراجها في مظهر مبتكر متطور، فتعددت النماذج وأساليب الإخراج حتى أصبح من المتعذر حصرها جميعاً.

وتشكيل المطرة يكون حسب الشكل المراد إخراجها به، فإن كانت مكورة مفرطحة يصنع كل نصف على حدة بعد ضغطهما بالقالب ثم يجمعان إلى بعض ويضاف إليهما العنق والعروتان، وإن كان شكلها كقرص سميك

سطحاه مستويان أو محدبان، فيصنـع كل وجه عـلى حدة بـواسطة القـالب ثم تصنـع حلقة أسـطوانية ويضم الوجهـان إليها. وعنـد خط الإلتصاق غالباً ما يكون هناك عنصر زخـرفي لإخفاء خط الوصل وتحسين شكل الإناء. ثم تقور الحلقـة الأسـطوانيـة ويضـاف إليهـا العنق والعروتان، وقـد يكون للمـطرة كعب كالمـطرة ٣٥٣٤ / ع/٩١٨ (الشكل رقم ٥) وهي مثال نادر ينفرد باقتنائه متحف دمشق.

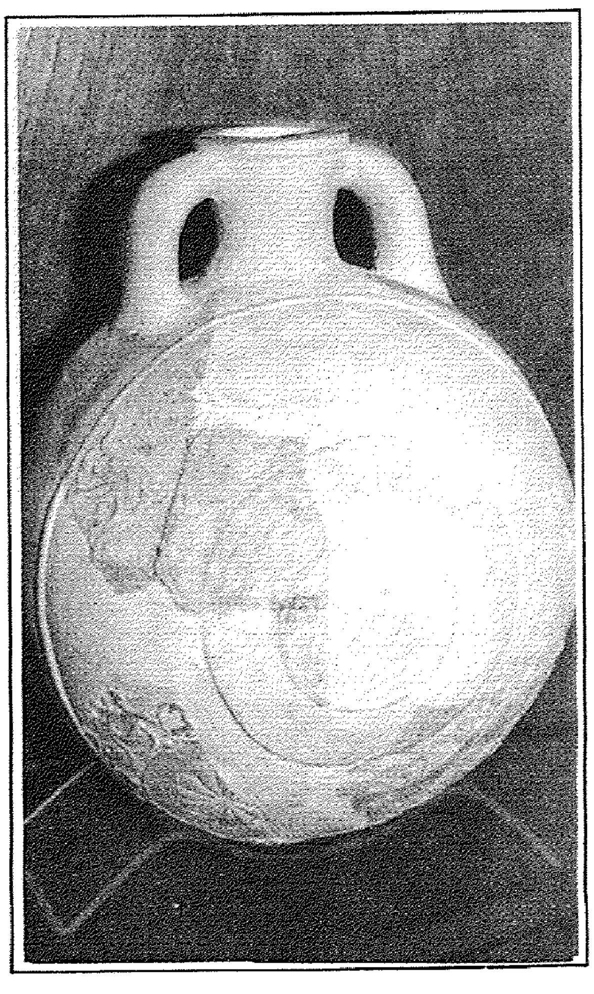
أما الصلصـال الذي تصنـع منه المطرات فقد يكون خشناً أو ذو لون قاتم، إلا أن الصانـع يستطيـع تلافي عيوب الإناء وذلك بغطسه بعد صنعه في غضار جيد مائـع له لون مناسب أو يطليه بلون آجري.

أشكال المطرات

هناك أشكال عديدة للمطرات تزيد كثيراً عن النماذج التي سنتعرض لذكرها في هذا البحث، إلا أنه على سبيل المثال لا الحصر نورد عدداً من النماذج المألوفة والشائعة للمطرات الإسلامية ليس إلا .. فهناك مثلاً **المطرة القربة**:

وهي من أقدم أشكال المطرات، لأنها مقتبسة عن شكل القربة المصنوعة من جلود الحيوانات، ولكن هذا لا يعني بالضرورة أننا إذا عثرنا على مطرة بشكل قربة وجب علينا أن نحكم بقدمها. ذلك أن التقليد في الصناعة قد يستمر في منطقة ما دون تطوير، أو قد يحبذ الصانـع العودة إلى ما هو طريف ولو بعد حين ــ فقد عثر في حماة على ثلاث مطرات على شكل القرب ولكنها تعود إلى القرن السابـع أو الثامن الهجري = الثالث عشر أو الرابـع عشر الميلادي[٨].

وفي متحف دمشق يوجد عدة نماذج من هذه المطرات نذكر منها المـطرة ٣٣٥٧ / ع/٨٤١ وجدت في المنطقة الوسطى من سورية، ارتفاعها ٩ , ٢٠ سم، وقـطرها الأعـظم ٦ , ١٦ سم (شكل رقم ٣) وهي مطرة هامة جداً لأنها عدا كونها تشبـه القربـة فهي تشبه أيضـاً جذع الإنسان، وقد جعلت الزينة عليها بالألوان، وكأنها دامرموشي يرتديه الإنسان يضاف إلى ذلك، ثقب في وسط أعلى الرقبة الذي يدل على إمكان تمثيل رأس إنسان.



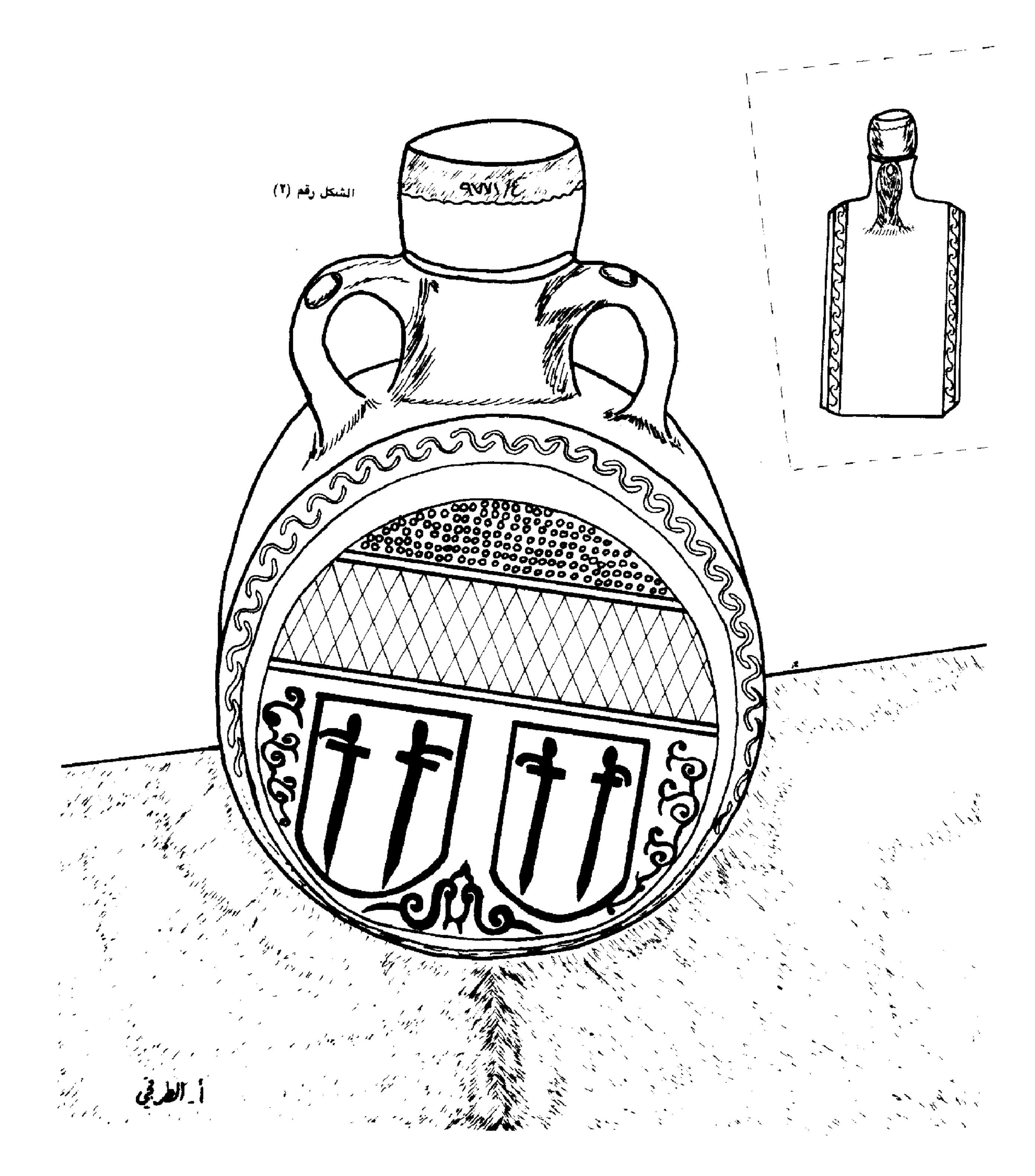
الصورة رقم (١)

□ **متحف دمشق الوطني، قاعة حماة، الخزانة رقم (٢)**

المطرة ذات شكل الكرة المفرطحة

أوالكـرة المضغوطة، وشكلهـا معروف منـذ القديم، حيث وجد منها عدة نماذج تعود للعصور الشرقية القديمة ــ أوغاريت ــ أو من العصور الكلاسيكية. وكان جذعهـا يصنـع من قطعـة واحدة حيث تأخذ شكلاً كروياً ثم تضغط لتأخذ الشكل المفرطـح والغرض من ضغطها حتى تأخذ الشكل الإنسيابي وهذا مما يسهل على المسافر حملها معه فوق راحلته وحتى لا تتعرض للكسر السريـع أثناء التنقل.

لكن الصناع المسلمين صنعـوا الجذع من ثلاثة أجزاء حيث شكلوا أولاً حلقة أسطوانية ثم وجهين مستديرين محدبـين بواسطة القالب ثم لصقوهما مـع الحلقة ثم أكملوا المطرة بوضـع عروتين وعنق ولدينا مثالاً لذلك في متحف دمشق (الصورة رقم ١) وهي ذات عنق أسطواني في



الشكل رقم (٢)

الأسفل يتضخم قليلا في الأعلى، ويلاحظ فيها خط الإتصال بين الوجه المحدب وجسم الأسطوانة والذي عَنِيَ الفاخوري بستره بشكل أنيق وبارع.

المطرة ذات القرص المحدب

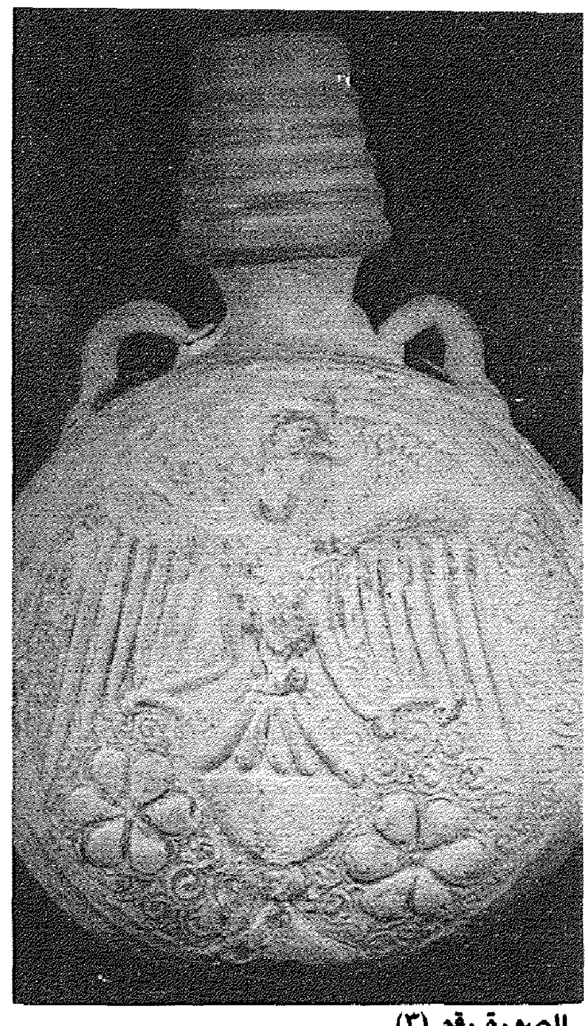
وتصنع بحيث تكون الحلقة الأسطوانية في هذا النموذج أكثر سمكاً ويكون الوجهين أقل تحدباً من المطرة المفرطحة وفي متحف دمشق نموذج منها المطرة ٥١٣٧ / ع/١٥٧٧ وهي ذات عنق مخروطي يضيق في الأعلى وزينته اللطيفة مؤلفة من حلقات متتالية وهي من الأمثلة الجميلة جداً عن إتقان صنعة المطرات[٩] (الصورة رقم ٣ والشكل رقم ٧).

المطرة القرص المستوى

ويكون وجها هذه المطرة مستويين تماماً كالمطرة رقم ع/٩٧٧١ (الشكل رقم ٢) والمطرة ع/٧٢٥ (الصورة رقم ٩) ونلاحظ في النموذج الأول أن العنق أسطواني الشكل ثم ينفرج ليلتقي ببروز حاد ينخصر معه بخيط تزييني ثم يتضخم قليلاً بانحناء لطيف ثم يضيق ليشكل معه الفوهة ونلاحظ أن العروتين مثقوبتين في أعلى منحني العروة وقبيل التقائها مع العنق ربما لغرض تزييني أو لإدخال خيط تربط به المطرة وتعلق من أجل زيادة برودة الماء بداخلها، ويلاحظ أن قرص المطرة في هذا النموذج يكون ذو سمك كبير لأن وجهيها مسسويان.

المطرة ذات الوجهين الزائدين

ويكون وجها هذا الشكل من المطرات أكبر من الحلقة الأسطوانية وهما دائماً محدبان، وهنا يحاول الصانع أن يلائم بين الوجه الزائد والحلقة الأصغر قطراً بشكل جمالي ولعل المطرة ٤٨٧٢ / ع/١٤٦٦ من أجمل الأمثلة لهذا النوع وقد وجدت في شمال سورية وتعود للقرن الثامن الهجري (الشكل رقم ٦) ويلاحظ أن ظاهر الحلقة الأسطوانية مزين بزخارف محززة وموخوزة بأداة يدوية. بينما نُفِّذَ الوجهان بزخارف بارزة بوساطة القالب. أما العنق فهو شبه أسطواني منفرج قليلاً نحو الأعلى ومزين



الصورة رقم (٣)

بحزوز طولانية مائلة[١٠]. ونجد أمثلة أخرى من أشكال المطرات تختلف عن التي أتينا على ذكرها كالمطرة الحلقة المستديرة، التي تشبه الكعكة وهناك نموذج منها في متحف حلب والهدف من هذا الشكل يفيد في تبريد الماء بداخلها لأن الهواء يحيط بأكبر مساحة ممكنة من الإناء.

العناصر الزخرفية والنقوش المحمولة على المطرات

تشترك معظم مطرات العهود الإسلامية بصفات مشتركة بينها، من حيث البناء والتشكيل، فهي غالباً ذات إطار دائري يضاف إليه رقبة وعروتان، بأسلوب رشيق يتناسب مع حجم وشكل المطرة. إلا أنها تختلف اختلافاً كبيراً من حيث التفاصيل الزخرفية المحمولة على جسم المطرة. ولعل بعضها قد ترك بدون زخرفة عن عمد رغم كونها متقنة الصنع أنيقة الشكل.



الشكل رقم (٣)

□ مطرة بدائية الشكل، تعود إلى القرن السابع او الثامن الهجري، الموافق القرن الثالث عشر او الرابع عشر للميلاد، وجدت في المنطقة الوسطى من سورية، مكونة على شكل زق، ومزينة بزخارف هندسية وشبه هندسية. منفذة باللونين الأسود والأحمر ــ الارتفاع: ٢٠,٩ سم، القطر الكبير: ١٦,٦ سم، القطر الصغير: ٩ سم. متحف دمشق الوطني، قاعة الفخار، الخزانة (٥).

وربما أكتفى الصانع بإحداث خيط بارز حول العنق أو قام بتجعيد بسيط لجذع الإناء، أو إضافة نتوء لطيف على العروة، ليس لغاية منه سوى إضفاء نوع من الزينة على الإناء.

وتختلف الزخرفة في المطرات من حيث التنفيذ والأداة المستعملة في الزخرفة فقد تكون مزخرفة باليد أو بالإستعانة بأدوات خشبية أو معدنية، ويمكن أن تكون الزخرفة بالألوان، أو بإضافة زخارف مقطوعة مسبقاً ومشكلة حسب رغبة الصانع تضاف إلى الإناء. ويمكن أن تتم الزخرفة بوساطة القالب أو الختم، وغالباً ما كانت تثبت الشعارات والرنوك على الأواني بهذه الطريقة.

وإذا كان استخدام الشعارات والرنوك معروفاً منذ القديم في تزيين الأواني الهامة أو التي تعود ملكيتها إلى شخص ذو أهمية كحاكم أو أمير، فقد اشتهر المماليك عن سواهم بإثبات شعاراتهم على مبانيهم التي شيدوها وعلى الأواني التي كانت للأمراء وقادة الجند ... وكثيرة هي الأسر المحلية التي قلدت الحكام والمماليك في هذا المجال متخذة لها رمزاً تثبته على الحاجيات أو الأواني المصنوعة لها. وكما أسلفنا لم يكن المماليك أول من ابتدع الرنك وأثبته على الأبنية والأواني، بل سبقهم إلى ذلك الأتابكة والأيوبيين. ولكن على نطاق ضيق[١١] حيث لم يلتزم الصناع في إثباته دائماً.

أما الشعارات المملوكية فقد كانت تقليداً رسمياً يحافظ عليه، وغالباً ما كان للرنك صلة بعمل الموظف أو الأمير أو صاحب الشعار، فالسيف والقوس لأصحاب المناصب العسكرية، والدواة للكاتب أمين السر، والكأس للساقي، أما الشعارات الممثلة بحيوانات كالأسد والعقاب فهي من رموز الملك للدلالة على القوة. هذا بالإضافة إلى عدة أشكال من الرنوك تكون غالباً مستوحاة من أشكال نباتية كزهرة اللوتس أو أشكال هندسية.

وهنا سنستعرض بعض الشعارات الموجودة على المطرات المحفوظة في متحف دمشق الوطني[١٢].

السيف: يوجد عدة مطرات في متحف دمشق الوطني تحمل شعار السيف وتختلف فيما بينها



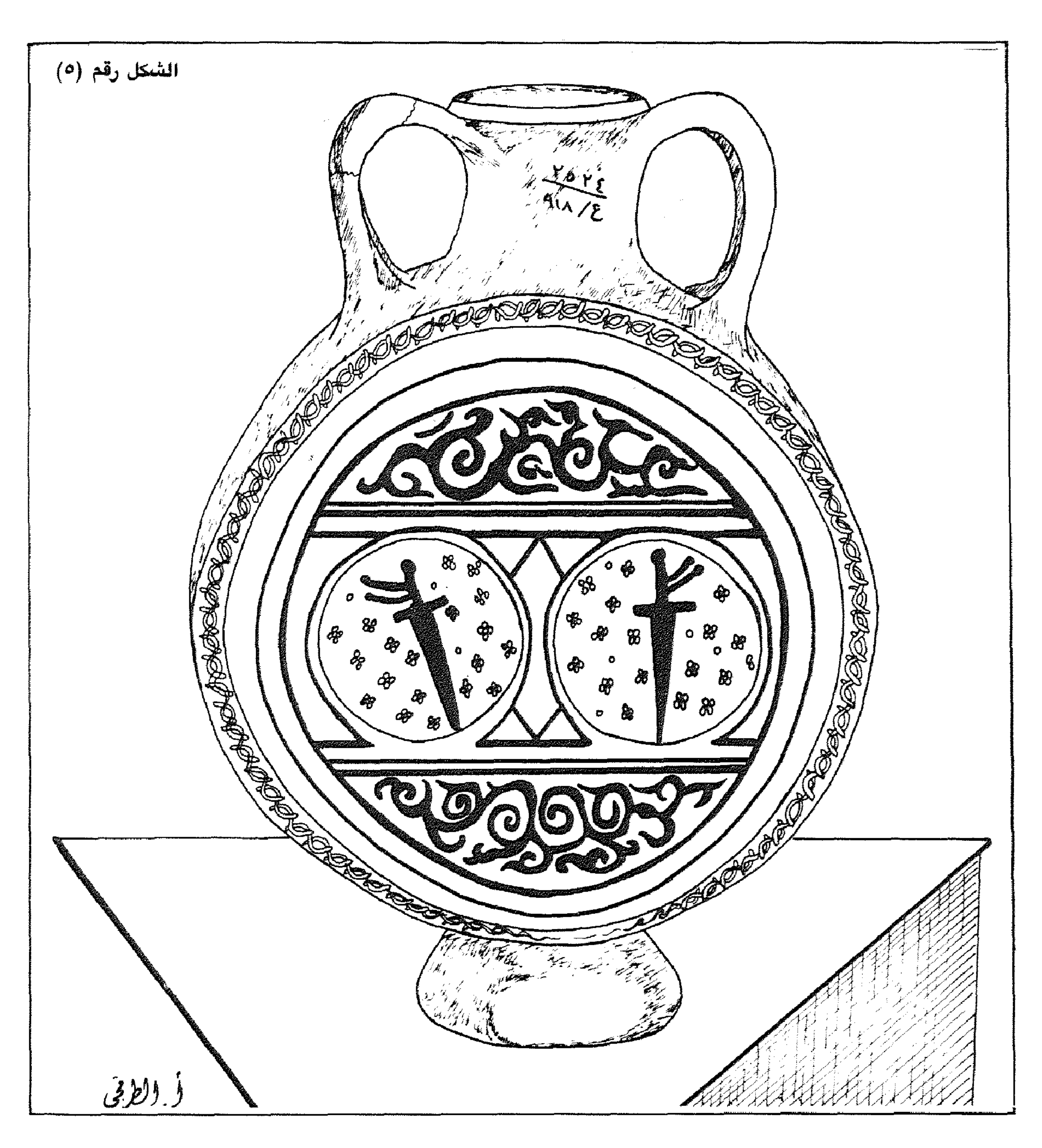
الصورة رقم (٨)

من حيث شكل السيف وصورته، ففي بعضها يظهر السيف بشكل حربة مستقيمة لها عارضة بعد المقبض، أو سيف مستقيم له عند مقبضه ذؤابة أو ذؤابتان أو سيف منحني ... الخ.

وقد يكون في الشعار سيف أو اثنان أو أكثر نذكر منها المطرة ٣٥٢٤ / ع/٩١٨ وقد مثل عليها ضمن دائرتين صغيرتين متجاورتين سيف مستقيم قائم له وقاء بين الفصل والمقبض وله ذؤابتين في مقبضه، ولقد زين ما بقي من سطح كل من الدائرتين بمجموعات متفرقة كل واحدة مؤلفة من ثلاث أو أربع حلقات صغيرة تبدو كأنها ورود صغيرة منثورة على سطح الدائرتين.

جمعت هاتان الدائرتان في أعلى وأسفل نقطة التماس بخطين منكسرين حَصَرا الفراغ الحاصل بين نقطة التماس والحدين المماسين للدائرتين في الأعلى والأسفل وقد ملئت الفرغات بحلقات صغيرة متراصة. كما يوجد خيط مؤلف من

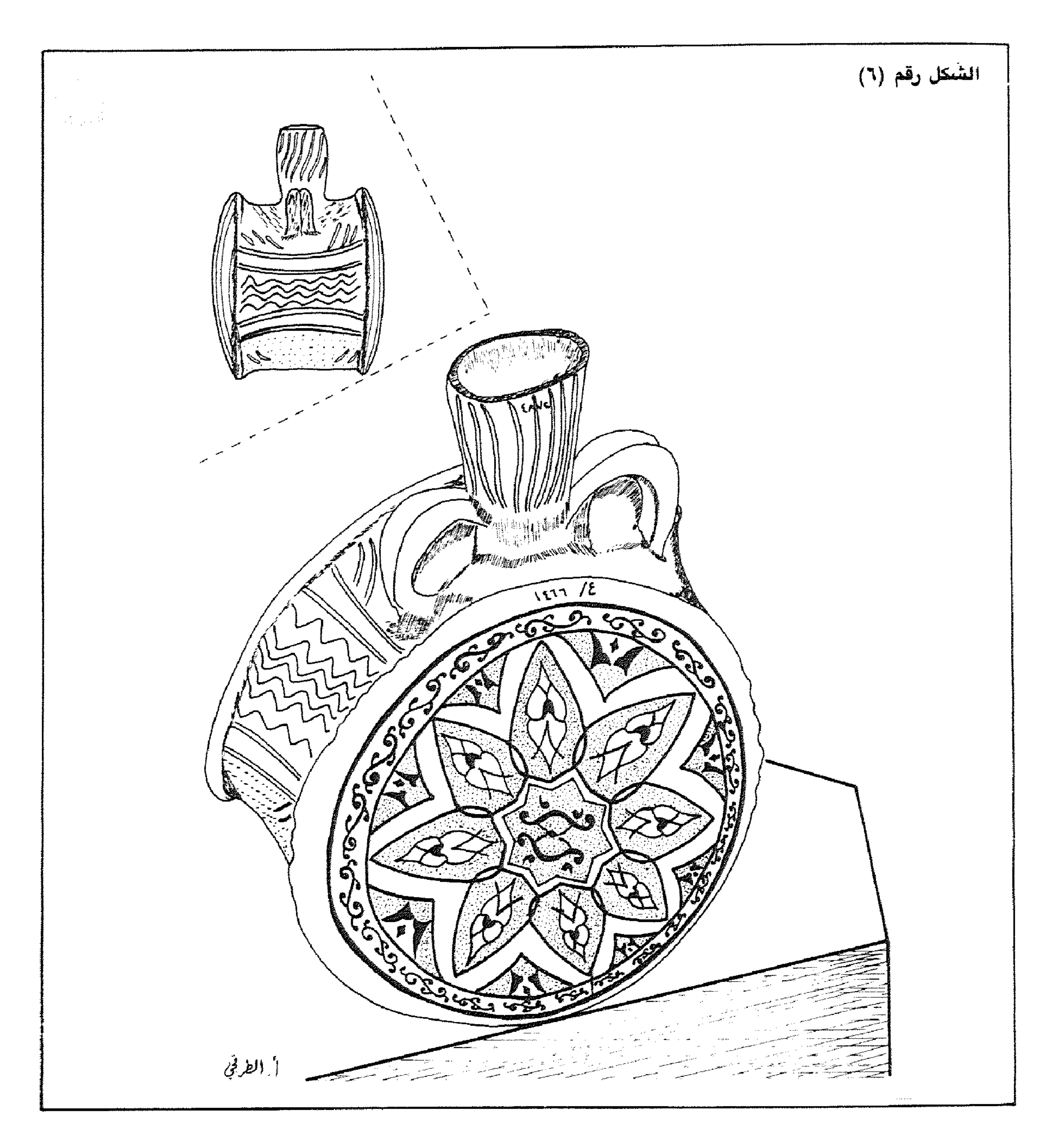
الشكل رقم (٥)



عروق نباتية على محيطي جانبي المطرة، وتتميز هذه المطرة عن سواها بوجود كعب مخروطي لها (الشكل رقم ٥)[١٣].

أيضاً هناك نموذج آخر في المطرة ع/٩٧٧١ حيث مثل كل من وجهيها ترسان مستويان من الأعلى ومستديران من الأسفل في كل ترس سيفان قائمان متوازيان لكل منهما وقاء بين النصل والمقبض وذؤابة واحدة في المقبض تنحني نحو الطرفين الوحشيين، وزين سطح كل من الترسين بحلقات صغيرة جداً، ويشغل الترسان القطاع الأسفل من قرص المطرة ضمن الدائرة التزينية، أما الفراغ بين الترسين ومحيط القطاع، فهو مشغول بعروق نباتية ناعمة ملتفة، والقسم العلوي من قرص الدائرة التزينية فهو مقسوم إلى قسمين بخيط يوازي وتر القطاع، قسمه السفلي مزين بشبكة من خطوط مستقيمة منكسرة بارزة والقسم العلوي مزين بحبيبات نافرة. وفي أعلى كل من عروتي المطرة ثقب

الشكل رقم (٦)



تزيـيني. (الشكل رقم ٢).

السبـع: عرف السبـع كشعار للقوة والملك، وقد استعمله المماليك كشعار لهم، واشتهر به الملك الظاهر بيبـرس في القرن السابـع الهجري، ويـوجـد في متحف دمشق المـطرة ٢٦٧٢ / ع / ٧٥٢ وقد مثل بيبرس على كل من وجهيها ضمن دائرة سبـع منطلق نحو اليسار، محدود من أعلاه وأسفله بخطين بارزين، والسبـع محاط بـزخرفـة نباتيـة، ووجهه إنسـاني وله شعـر مقصوص ـــ ربما هذا من تأثير فرعوني، ويبدو فوق ظهره أطراف رداء متطايرة كأنها جناح، وذيله معقوف فوق ظهره، والقطاعان الباقيان من الدائرة في الأعلى والأسفل، زينت بعروق نباتية متشابكة (الصورة رقم ٩).

النسر: أمـا النسر فقد مثـل في الشعارات بأوضاع وأشكال مختلفة كما أنه مُثِّلَ أحياناً برأسين. وأشهر من جعل النسر شعاراً له الأمير سيفِ الدين طقزتمر الحموي ويوجد مطرة هامة

الشكل رقم (٨)



جداً له في متحف دمشق الوطني يجمع إلى شعاره النسر أيضاً الكأس دلالة على رتبته الأولى التي كان يشغلها، إذ كان ساقياً في المطرة ٥١٣٧ / ع/١٥٥٧ والتي مثل عليها النسر يلتفت إلى الجهة اليسرى ناشراً جناحيه على الطرفين مسنداً ذيله فوق كأس مسطح الأعلى ذي قاعدة. وعلى جانبي الكأس وردتان من ست وريقات. وهذه العناصر بارزة فوق أساس من عروق نباتية ناعمة ذات بروز ضعيف[١٤] (الصورة رقم ٣) الشكل رقم ٧).

زهرة اللوتس: مثلت أيضاً كشعار على المباني والأدوات الخاصة واتخذها كثير من الملوك والأمراء شعاراً لهم، ولكنها تختلف من حيث تكوينها وشكل وريقاتها ونهاياتها العليا والدنيا.

والزنكيون هم أول من استخدمها كشعار واتخذها بعدهم الأيوبيين ثم المماليك ولدينا المطرة ٤٦٩١ / ع/١٤١٥ مثالاً جميلاً لزهرة اللوتس وهي مطرة مسطحة الجانبين زين كل من وجهيها بزهرة اللوتس بشكل بارز على أساس من عروق نباتية قليلة البروز ومحصورة ضمن دائرة. وهي بشكلها مثالاً نادراً لم يعثر على مثيل له كقرينة أثرية لتحديد هوية صاحبه (الصورة رقم ٨) و (الشكل رقم ٨).

هذا من حيث الزخرفة الخارجية للمطرات، ولكن التزيين لا يقتصر على الزخرفة والرسوم المصنوعة بالقالب أو بالختم بل يتعداها إلى التشكيل العام للمطرة حيث يتفنن الصانع بها لعدة أغراض منها:

١ ـ الحصول عل أكبر فائدة ممكنة من المطرة حين استخدامها.

٢ ـ أن يكون شكلها جميلاً وأنيقاً ومتناسب الأجزاء، لإغراء المستهلك بإقتنائها.

فعند صنع المطرة يحاول الصانع أن يجعلها تستوعب أكبر قدر ممكن من الماء وأن تكون مزوّدة بمشرب هنيء، وأن تكون ذات عنق ضيق لئلا يتوثب منها الماء عند حملها أثناء المسير ولئلا يتدفق الماء بغزارة منها عند الشرب، إضافة إلى الحرص على أن يكون شكل المطرة ملائماً للمكان الذي يضعها المسافر به حتى لا تضايقه أو تتعرض للكسر.

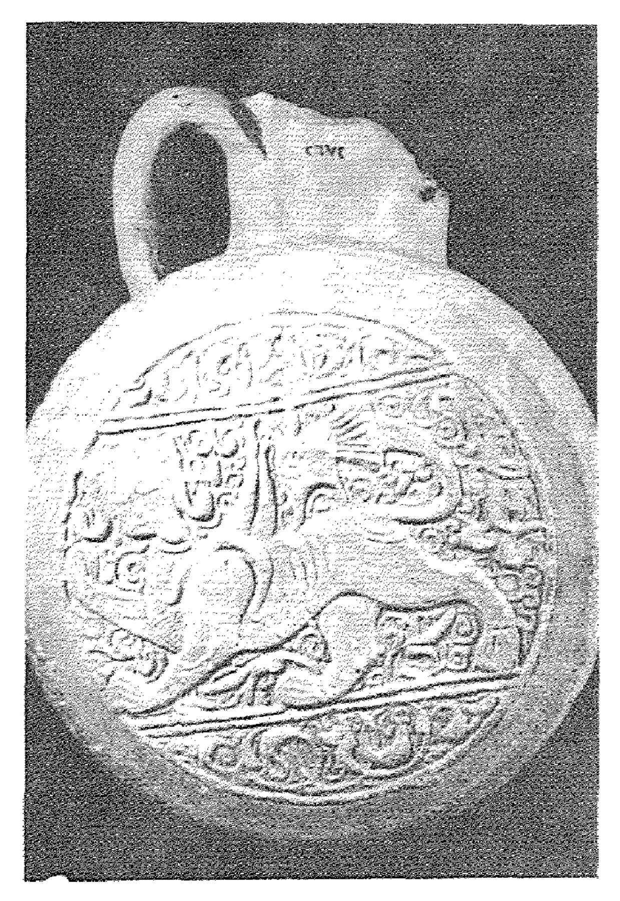
هناك عنصر زخرفي آخر في تزيين المطرات الا وهو العروة ...

فالعروة تتصل بجسم المطرة أو الإناء بشكل عام من مكانين فقط ويكون ما بينها وبين الإناء فارغاً وأشكال العرا متنوعة وكثيرة، فقد تتصل العروة بالعنق من أسفله أو وسطه في طرفها الأول، وبأعلى الجذع من الطرف الثاني، أو يكون اتصال العروة بالعنق منحنياً منعطفاً عليها بحيث يكون الإتصال حاصلاً بين ظاهر العروة والعنق. أو تكون العروة موصولة بحافة الشفة أو أعلى العنق وتنعطف مرتفعة قليلاً عن مستوى الشفة لتتجه نحو الأسفل موازية تقريباً للعنق لتتصل بأعلى الجذع، أو يكون اتصال العروة من وسط الرقبة. ونذكر هنا أن هناك أشكالاً عديدة تختلف قليلاً عن الأشكال المذكورة، وأحياناً يلجأ الصانع لتزيين العرا نفسها كأن يجعل العروة مجدولة مثلاً، أو تكون مضلعة أو محززة بأخدود في ظاهرها، أو تكون الزخرفة بإضافة عناصر أخرى في الشكل العام للمطرة كأن يحدث الصانع للمطرة كعباً كما في المثال الذي ذكرناه سابقاً في المطرة ٣٥٣٤ / ع/٩١٨.

وأخيراً لابد من القول أن صنعة الفخار لم تكن الفن الوحيد الذي عني المسلمون به وأبدعوا في إنتاجه، ولئن كانت هذه الصنعة قد تمتعت بشهرة واسعة حيث كانت تصدر إلى كثير من جهات العالم، فإن الفخار الإسلامي وعلى الرغم من كافة التقلبات التي تعرضت لها الدولة الإسلامية، قد حافظ على شهرته وبشكل خاص المنقوش منه والمزخرف.

ورغم تقشف الحياة الإجتماعية في المجتمعات الإسلامية، إلا أن الذوق الجمالي في إخراج الصناعة لم يغب أبداً عن فكر الصانع المبتكر ويده المبدعة، فقد اجتمعت الفنون كلها في تزيين الحياة الإسلامية والسمو بها إلى ذروة الجمال.

وإذا كان المجتمع المسلم لم يفرق بين الصانع الماهر ... وكان الهدف الذي تبتغيه كل صناعة أن تصبح فناً من الفنون الجميلة.



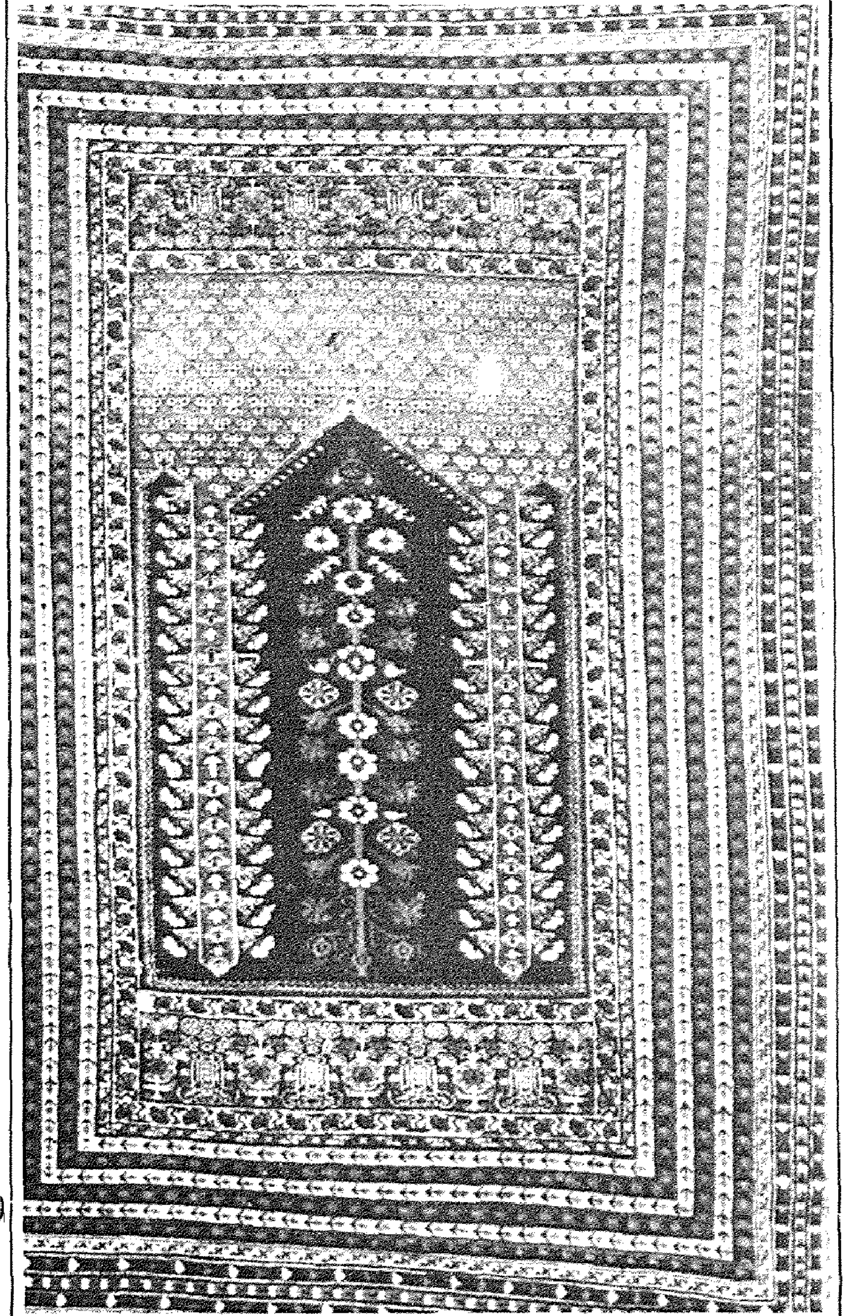
الصورة رقم (٩)

الهوامش

(١) سورة الرحمن، الآية (١٤).
(٢) مجلة الحوليات الأثرية السورية. المجلد ٢٧ ــ ٢٨ دراسة الفخار الأثري ص ٢١٦.
(٣) سورة الأنبياء، الآية (٣٠).
(٤) مطرة قرصية الشكل صغيرة الحجم من الطراز المسيني سطحها مزين بأشرطة دائرية سوداء وهي احدى القطع المكتشفة من الحفريات التي أجراها الأستاذ نسيب صليبي عام ١٩٧٠ في موقع رأس الشمرة.
ولمزيد من المعلومات حول هذه المطرة تراجع مجلة الحوليات المجلد ٢٩ ــ ٣٠.
(٥) مجلة سومر، المجلد رقم ٤ لعام ١٩٤٨ بحث في الفخار للأستاذ فرج بصمة جي.
(٦) أرقام المطرات المذكورة هي الأرقام المحتفية التي تحملها المطرات المعروضة.
(٧) مجلة الحوليات، المجلد ١٠ مقال للأستاذ محمد لو الفرج العش ص ١٣٥ وما بعد.
(٨) مجلة الحوليات، المجلد ١١ ــ ١٢ ص ٥٤ وما بعد.
(٩) المرجع السابق.
(١٠) المرجع السابق ص ٦٦.
(١١) مجلة الحوليات، المجلد ١٠ ص ١٤٥ وما بعد.
(١٢) جميع نماذج المطرات التي نذكرها معروضة في قاعة حماه وقاعة الفخار في المتحف الوطني بدمشق.
(١٣) مجلة الحوليات، المجلد ١٠ ص ١٨١.
(١٤) المرجع السابق ص ١٨٢.

البُساط السّحْريّ

شذا عدرة



□ سجادة روسية، من العهد القيصري (القرن التاسع عشر)

بُساط، كلمة عربية لحرفة، على الأرجح، فارسية المنشأ. وهو في الأصل ثوب يفترش الأرض، تطور استعماله، فيما بعد، ليصبح سجادة أو مسجدة[1].

والحديث عن السجاد واصله وتطور صناعته، حديث مشوِّق تكتنفه الحكايات والأساطير لتدلنا على مدى أصالة هذه الصناعة وتغلغلها في أعماق تاريخ الحضارة الإنسانية.

والباحث في جذور تلك الصناعة وتطورها، يتبين له أمران: الأول، ان تلك الجذور قد نبتت بمعظمها، إن لم يكن كلها، في قارة آسيا مهد أقدم الحضارات البشرية، وبالتحديد في بعض المناطق من شرقيها وجنوب غربيها أي الشرق الأدنى والأوسط والأقصى.

أمّا الأمر الثاني، فهو أن رسومات السجاد ورموزه، كانت جميعها تتلاءم أو بالأحرى تعبر عن معتقدات شعوب تلك المناطق. لذا نجدها في العصر الإسلامي تختفي منها صور الأشخاص والحيوان ما عدا بعض الطيور، وبالتالي فقد اتسمت بالنظرة التجريدية الشاملة. هذا بالإضافة إلى أن الإسلام، كان الحافز وراء ابتكار نوع خاص من البُسُط وهو سجادة الصلاة (من هنا جاءت كلمة السجادة، أي من السجود لله تعالى)، وقد كانت متميزة بحجمها الصغير ودقة صنعها وجودة نوعيتها. كما ان دخول الإسلام إلى معظم البلدان الآسيوية قد طبع حضارة تلك البلاد بطابع الحضارة العربية، التي انعكست بدورها على صناعة السجاد من خلال الزخرفة العربية الجميلة (الأرابيسك ــ Arabesque).

وقد رافقت الأساطير أخبار السجاد، وكان أشهرها أسطورة «بساط الريح»، أو «البساط السحري» الذي كان يسافر عليه حكيم من بلاد الشرق، يحط من وقت لآخر في بعض المدن.

ونتناول نحن في هذا العدد، ترجمة مقال طريف وشيّق إلى جانب أهميته الحضارية، بعنوان «البُساط السحري»[2]. ولكن لم نعتمد عليه فقط في المعلومات التي وردت في الترجمة، بل عدنا إلى بعض المصادر الأخرى، واستعنّا بأهمها.

تدلنا تلك الأسطورة على مدى أهمية «البُسُط» أو بالأحرى السجاد في حياة الإنسان الشرقي. انها ترافقه في جميع مراحل حياته، منذ ولادته حتى مماته.

بالنسبة إليه، تعتبر الأهم بين جميع مفروشات منزله، جعلها فراشاً له، غطاء، خيمة، كيساً، سرجاً لحصانه أو جمله حتى أنها أيضاً رافقته في خلوته وهو واقف بين يدي ربه يؤدي صلاته.

قد تدفع الحاجة، الشرقي إلى بيع ممتلكاته ولكنها لا تدفعه إلى التخلي عن سجادة قد يمتلكها، عروس الشرق قد لا يكون لديها ألبسة كثيرة ترتديها ولكن من المؤكد أن يكون لديها سجادة، قد تكون حاكتها منذ نعومة أظافرها.

كانت السجادة، تحاك باليد من صوف الغنم أو الإبل أو شعر الحصان، وتصبغ بأصبغة طبيعية تستخرج من التربة أو الأزهار البرّية. ثم تهمل لعدّة أيام في اصطبل للحيوانات، حيث تدوس عليها الأحصنة، الإبل والحمير، وذلك بقصد أن تشتد خيوطها وتتماسك عقدها. تنقل بعد ذلك إلى ضفاف أحد الأنهر الغزيرة حيث تخترقها المياه لعدّة أسابيع. تزيل عنها الأوساخ كلياً وتكسبها لوناً ثابتاً. وأخيراً تُجفَّفْ بواسطة أشعة الشمس وتصبح جاهزة للاستعمال.

يعود تاريخ صناعة السجاد إلى عصور بداية الحضارة الإنسانية، إذ أشارت إليها أحداث التاريخ، فالكتّاب كتبوا عنها، الشعراء، تغنّوا بها والأحداث صغيرة كانت أم كبيرة تجسّدت برسومها، وأقدم سجادة اكتشفت، وما زالت موجودة، كانت على يد عالم روسي يدعى رودينكو ــ Rudenko. وقد اكتشفها عام ١٩٤٩، في قبر ملكي بالقرب من الحدود السيبيرية ومنغوليا العليا. تبلغ مساحتها حوالي الأربعة أمتار مربعة، مصنوعة من الصوف، ومكسوة برسوم زهرة اللوتس (شعار المصريين القدماء). وقد أثبت خبراء «جمعية الصوف العالمية في دسلدورف ــ

International Committee of Wool in Dus-

seldorf».

إن أصل تلك السجادة يعود إلى مدينة سوسّة ــ Sussa الإيرانية في حوالي القرن السادس قبل الميلاد، أمَّا عن وجودها في منغوليا البعيدة جداً عن بلاد فارس، فيعطينا الدليل القاطع على وجود طريق الحرير المشهور في تلك الآونة والذي كان يعبر آنذاك قارة آسيا بكاملها.

ولكن موطن ولادة السجاد، ليس بلاد فارس ولا مصر أيضاً، بل هناك نظرية، تعتمد على اكتشافات ظهرت في مدن شعوب المآيان في المكسيك مفادُها أن تلك الشعوب قد عبرت محيط الباسيفيك ووصلت إلى مصر، حتى قبل بزوغ الحضارة الفرعونية، وفرضت حضارتها على سكان مصر التي كان من بينها صناعة السجاد.

والشاهد على صحة هذه الرواية هو في تلك الرسوم المنحوتة على جدران كثير من معابد يوكاتان ــ Yucatan، وتمثال للإله الفرعوني آبيس ــ Apis الذي يرتدي، على شكل عباءة، سجادة زيّنت برسومات مايانية. ولكن وإن كانت هذه الشواهد تدل على صحة هذه الرواية، إلّا أنه يبقى راجحاً، ان المصريين هم أول من فكر بإنتاج السجاد ليس حياكة على النول فقط، بل حياكة بالإبرة أيضاً.

وإن كانت مصر هي صاحبة الفضل في ولادة فكرة حياكة السجاد، إلَّا أن بابل العراقية وبرسيبوليس الفارسية كانا المركزين الرئيسيين لتلك الصناعة وتطويرها، وقد انحصرت حياكة السجاد بالمرأة لأنها تتطلب أيدي ناعمة وأصابع دقيقة لحبك عقدها.

أخذت، بعد حين، تظهر في آسيا مدن كثيرة تحتل مكانة مرموقة في إنتاج السجاد، كسوسة، مشتى الملوك الأخمنيين، والواقعة جنوبي غربي إيران، ومن ثمّ لحقتها صور وصيدا الساحليتان في لبنان، وميلتوس ــ Miletus الأثرية في تركيا وبرغاموم ــ Pergamum، المملكة اليونانية القديمة، والتي تغطي معظم أجزاء غربي آسيا الصغرى[٣].

أمَّا في الشمال، إلى الشرق من تركستان وبالقرب من القوقاز على طول خط طريق الحرير. ازدهرت صناعة نوع معين من السجاد كان يختلف عن غيره تماماً ويتميز بألوانه التي لا تضاهى، «على الرغم من أنها مدينة بربرية، إلَّا أنّ الإنسان قد يجد فيها سجاداً أرجواني اللون، شبيهاً بلون الخمرة في كأس زجاجي تنعكس عليه أشعة الشمس فيشعُّ منه ألواناً لا تضاهى، وهو ذو سماكة كبيرة، حتى ليخالك وكأنك تسير على ظهر سفينة شراعية تمخر عباب البحر». هذا ما جاء على لسان كاتولوس ــ Catullus (٨٤؟ ــ ٥٤ق. م.)[٤]، الشاعر الغنائي الروماني، الذي افتتن بسجاد تلك الناحية[*] وجمال ألوانه.

تكشف لنا المصادر اليونانية ــ الرومانية القديمة؟ مدى الأهمية التي كانت تحتلها السجادة في حياة شعوبهم اليومية. فملوك اليونان أمروا بتغطية عروشهم بعدد منها، ومشاهير الإغريق امتلكوا منها الكثير كالفيلسوف أفلاطون (٤٢٧؟ ــ ٣٤٧ق. م) الذي أكسبته مجموعته الكبيرة شهرة إلى جانب شهرته كفيلسوف.

وخلال الحرب اليونانية ــ الفارسية، حرص الجيش الإغريقي على حمل الكثير من الغنائم ومن بينها السجاد النفيس، وقد أهدى الإسكندر الكبير إحداها إلى والدته أوليمبيا، وكانت أرجوانية اللون مزينة برسوم الطيور والأزهار.

أمَّا عند الرومان، فنجد عكس ذلك، إذ وجدوا في اقتناء السجاد نوعاً من التخنّث البشع، وفضّلوا على دفئه الاحتفاظ ببرودة رخام بلاطهم وفسيفسائه.

أقصُوه عن حياتهم اليومية تجارياً وداخل منازلهم، حتى ان كاتو ــ Cato السياسي الروماني (٢٣٤ ــ ١٤٩ ق.م.)[٥] قد ذهب إلى أبعد من ذلك وأحرَق أمام جمع غفير، سجادة بابلية ثمينة، كان قد ورثها عن أجداده الذين حرصوا على الاحتفاظ بها لجمالها. ولكن على الرغم من كل ذلك فإن السجادة لم تختف بتاتاً من حياة الرومان، إذ صوّروها في لوحاتهم الجصّية الجدارية والفسيفسائية في كل من مدينتي بومبيي،ــ Pompeii وهيركولانيوم ــ HERCULANEUM الرومانيتين الأثريتين.

وبمرور السنين، ساهم الترابط الذي أحدثه «طريق الحرير» بين أصفهان وبكين، ساهم كثيراً في نمو العلاقات وتطويرها بين امبراطوريات آسيا



□ «رامي السهام» رسم من رسومات «سجادة صيد» كبيرة، من صنع معمل البلاط الفارسي. (النصف الثاني، من القرن السادس عشر).

الثلاث: فارس، الهند والصين. وقد انعكس ذلك على «فن صناعة السجاد» من حيث تبادل الحرفيين أو اختطافهم مما أدّى إلى ولادة فن آخر جديد، كان مزيجاً من فن بلد المصدِّر والمقيم.

عند الانتقال إلى الحديث عن صناعة السجاد في الفترة الإسلامية، لا بدّ من ذكر التأثير القوي الذي أحدثه الإسلام على تلك الصناعة من حيث الرسوم والابتكار. فعند ولادة الرسول الكريم (صلعم) حوالي عام ٥٧٠م، لم يكن أحد يتوقع الانقلاب الذي سيحدثه صاحب الدين الجديد في جميع مجالات الحياة وعلى جميع الحضارات اللاحقة.

فالعرب، تحت راية الإسلام، افتتحوا قارة آسيا حتى حدود الهند، ومصر وشمالي افريقيا واسبانيا. وسادوا جميع البلاد التي افتتحوها سيادة شاملة وطبعوها بطابعهم فإذا هي كادت تنسى قديمها وتأثرت بالفاتح أدباً وعلماً وفناً.

وفيما يتعلق بفن التصوير والرسوم، «فالبيئة العربية قبل الإسلام لم تعرف التصوير فناً كما عرفته الأمم الأخرى، ولعلّ بُعد الأمة العربية في جاهليتها عن التصوير، كان له أثره فيها فيما بعد حين أظلّها الإسلام فكانت أميل إلى الأخذ بما تخال فيه نهياً عن التصوير وابتعاداً عنه»[٦].

أما القرآن الكريم فليس فيه ما يشير عن قرب أو بعد إلى تحريم التصوير. ولكن يبدو أن الأثر البيئي الذي صرف العرب عن الأخذ بالتصوير، ظلّ ممتداً عهود الإسلام الأولى إلى أن كانت تلك الصلات التي ربطت الشعوب العربية بشعوب أخرى ذات حضارات تختلف عن حضارتها، وتحمل فنوناً مختلفة منها فن التصوير الذي وقف منه الإسلام موقف النهي أكثر من موقف التحريم، لأنه كان حريصاً على أن لا يكون بين العابد وربه شاغل من رسوم أو تصاوير(**)

«ويروى أن عائشة زوج الرسول الكريم (صلعم) وضعت في بيتها ستراً عليه تصاوير، فقال لها الرسول: أميطي عني فإنه لا تزال تصاويره تعرض لي في صلاتي. وتقول عائشة رضي الله عنها أن الرسول قد نزع الستر، فقطعته هي وسادتين كان يرتفق عليهما. وهذا يعني أن كراهية الرسول للتصوير لم تكن عامة بل كانت خاصة تشمل ذلك الجانب الذي يشغل عن العبادة. أما إذا كانت للزينة فلا كراهية فيه»[٧].

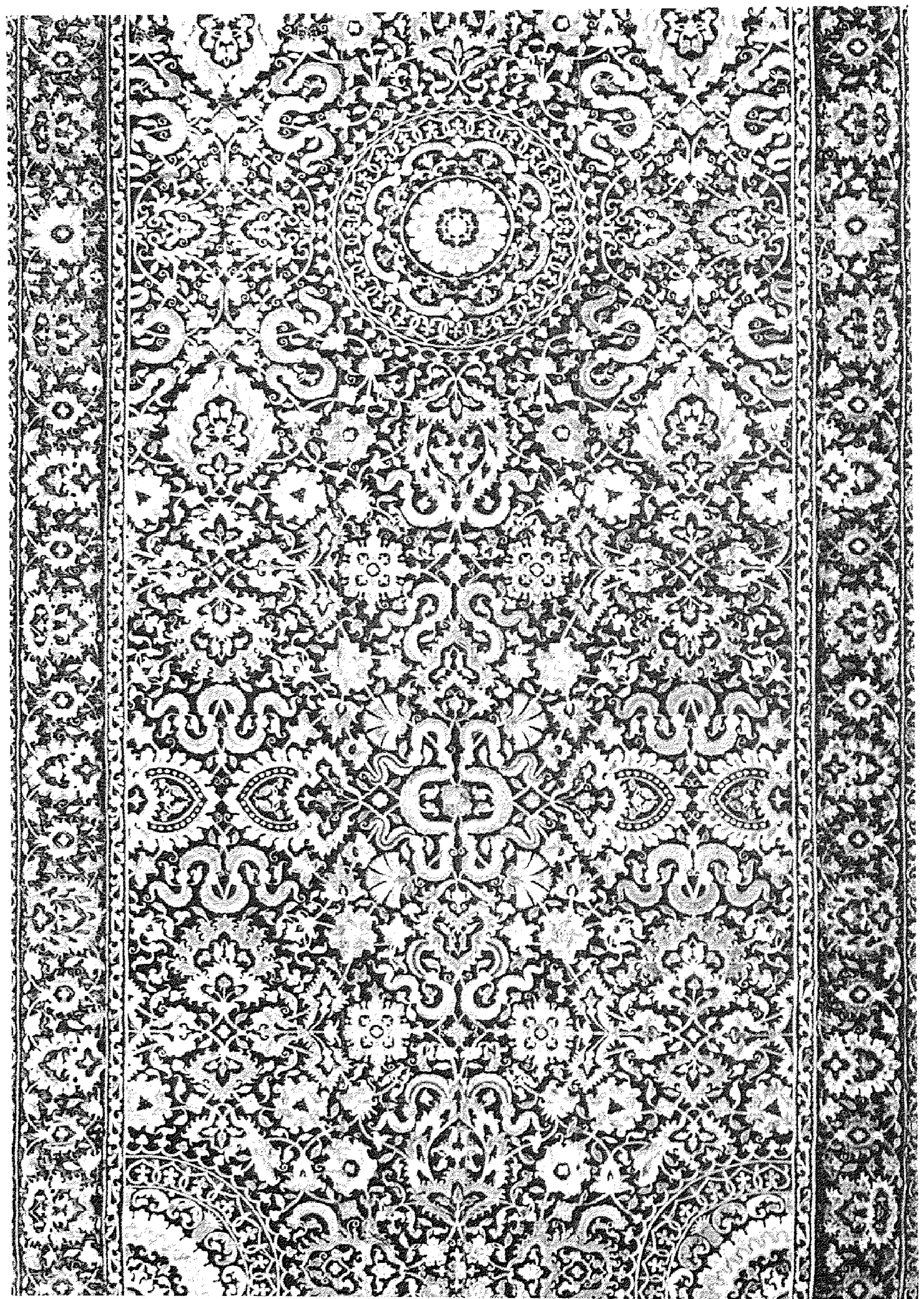
وهكذا نجد المسلمين قد أخذوا يستعيضون عن رسومات الأشخاص في سجادهم برسومات أخرى زخرفية كانت غاية في الجمال. وقد وصلت تلك الرسومات إلى ذروة جمالها مع أهل بلاد فارس، موطن أكثر الفنانين إبداعاً في مجال صناعة السجاد، من حيث التصاوير الرائعة، والألوان المنسجمة المشرقة وحسِّهم الذي لا يضاهى في فن الزخرفة العربي.

أمّا من حيث الابتكار، فقد ظهرت السجادة الخاصة بفريضة الصلاة والتي أصبحت حاجة ضرورية تكاد لا تفارق المسلم الورع في حِلّه وترحاله. وتجدر الإشارة إلى أن سجادة الصلاة لم ينص عليها القرآن أو الحديث بل كلّ ما هنالك أن الرسول الكريم (صلعم)، قد أجاز لأصحابه الصلاة على قطعة من القماش يفرشونها أمامهم بغية إراحتهم أثناء السجود.

استمرت التحسينات على السجاد ورسوماته حتى أصبح سلعةٍ قيّمة باهظة الثمن يتهادى بها الخلفاء والملوك، كما حدث في القرن التاسع ميلادي، عندما أرسل الخليفة العباسي هارون الرشيد مجموعة من الهدايا القيّمة إلى الامبراطور الفرنسي شارلمان وكان من بينها عشرون سجادة فاخرة حازت على إعجاب شارلمان لدرجة أنه كان يأمر بحملها معه أينما ذهب.

أمّا الصليبيون، فقد ذهلوا بالسجاد الثمين الذي شاهدوه في الشرق. وتروي لنا الأخبار كيف أن بلدوين ــ Baldwin البولوني ملك القدس، عام ١١٠٠م، كان يتناول وجبات طعامه وهو جالس القرفصاء على سجادة ثمينة، وكيف ان أفراد حاشيته كانوا يعيشون على الطريقة العربية الإسلامية، يلبسون لباسهم، يتزينون بزينتهم، يتعطرون بعطرهم ويستعملون سجادهم.

وقد حمل الصليبيون معهم، أثناء انسحابهم من الأراضي المقدسة، العديد من السجاد الشرقي البديع الذي أكثر ما كانت تفتقر إليه قصورهم الباردة. علّقوها، في البداية، على الجدران ثم فرشوها أرضاً، ثم قلّدوا في النهاية أهل الشرق، فاستعملوها غطاءً لفراشهم



□ سجادة تركية «ملوكية» محاكة بالإبرة (حوالي القرن السادس عشر).

ومقاعدهم.

شهد القرن السادس عشر قمة التطور الفني في صناعة السجاد الفارسي، ويعود الفضل في ذلك إلى الشاه عباس الأول الذي شجع ذلك الفن، فأنشأ المصانع وفتح المدارس للحرفيين وقدم الهبات والجوائز لكل من ينجز سجادة ذات جمال مميّز. وانتقل حماس الشاه إلى أفراد الشعب الإيراني فأخذوا يتنافسون في صنع السجاد الأكثر جمالاً واتقاناً وبذلك غدا عصر الشاه عباس الأول، عصر الازدهار بالنسبة للحرفة الفنية من حيث كمال صنعها، وغنى زخرفها، وحتى من حيث من قد يختارها صنعة له.

كان اقتناء السجاد في أوروبا مرادفاً للغنى والرفاهية، وأصدق تعبير عن ذلك ما قاله الفنان ليوناردو دي فينشي ـ Leonardo da Vinci (١٤٥٢ ـ ١٥١٩)[٨] «لا يمكن أن يكون هناك بيت جميل دون أن يكون معلق على جدرانه سجاد تركي». وفي البلاط الفرنسي، كانت السجادة تحتل مكانة بارزة، فالتي يدوس عليها الملك، لا يمكن أن يدوس عليها شخص آخر.

وبلغ من اهتمام وشغف الأوروبيين بالسجاد الشرقي أنّ بعضهم كان يقتني الكثير منه، أمثال مازارين ـ Mazarin (١٦٠٢ ـ ١٦٦١)[٩]، الكاردينال والسياسي الفرنسي، كان لديه ست وأربعون سجادة شرقية، عشرون منها صغيرة الحجم لدرجة أنها كانت تصلح غطاء للطاولات. أمّا موليير ـ Molière، الأديب الفرنسي (١٦٢٢ ـ ١٦٧٣)[١٠]، فقد اقتنى الكثير من السجاد التركي، كولبرت ـ Colbert السياسي الفرنسي (١٦١٩ ـ ١٦٨٣)[١١] امتلك إحدى عشرة سجادة تركية، كانت إحداها سجادة صلاة أولع بها كثيراً لدرجة أنه نصح كل مسيحي مؤمن باستعمال مثلها. وبلغ الأمر مع الملك لويس الرابع عشر، أن أمر بفرش ما حمله إليه سفير بلاد فارس من سجاد عجمي في جميع غرف قصر فرساي.

والأمثلة كثيرة على شغف واهتمام الأوروبي أو بالأحرى الفرنسي، بالسجاد الشرقي. وقد بلغ هذا الشغف ذروته في عهد الملك لويس السادس عشر، حيث اتسع نطاق انتشار السجاد الشرقي، فشمل المفكرين والفنانين حيث أخذ بعضهم يجمع القطع النادرة من السجاد المميّز برسوماته الجميلة، خاصة التي تتلاءم وزخرفة عصرهم.

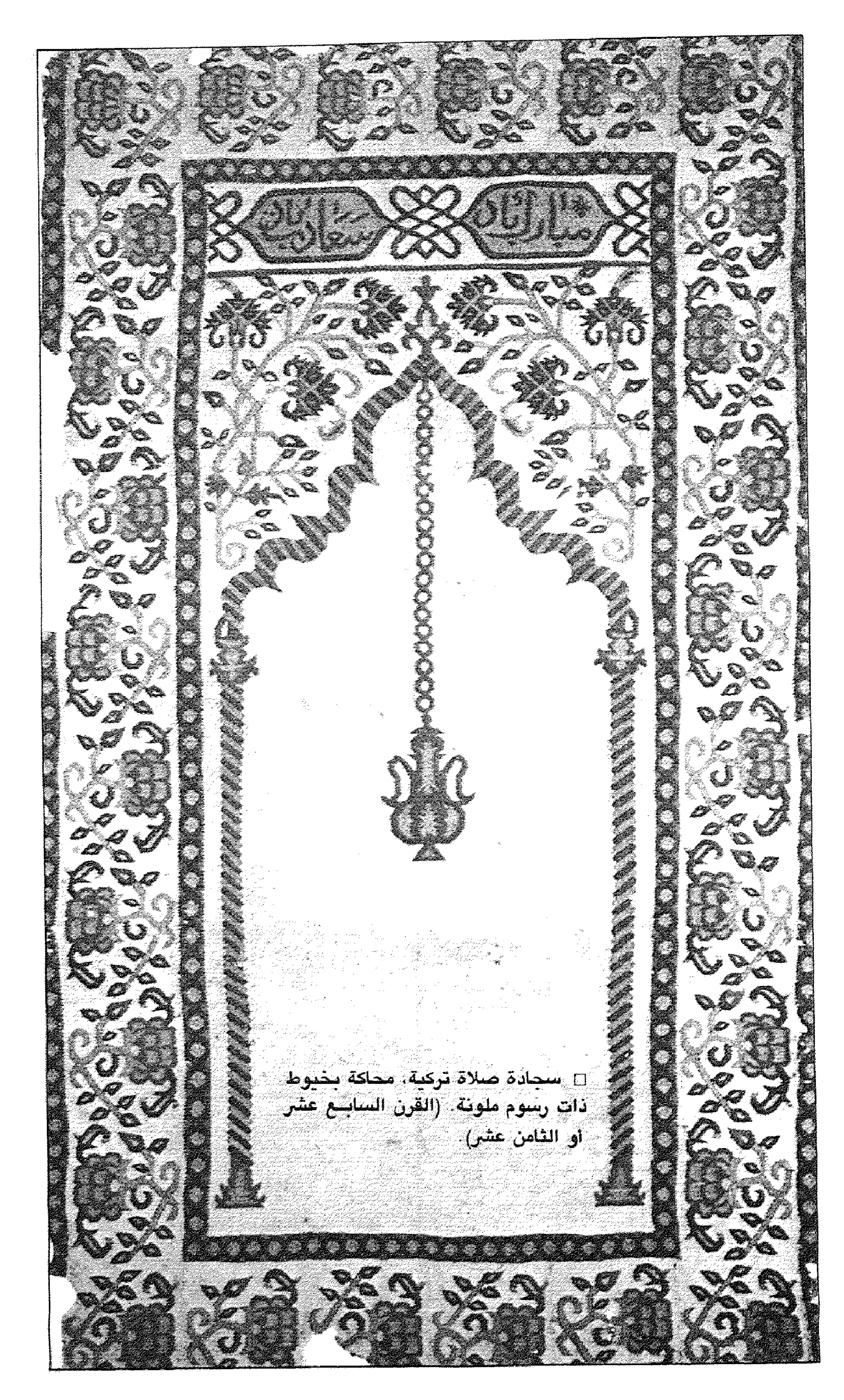
ثم جاءت الثورة الفرنسية ليشهد سوق السجاد ركوداً، لم تنعشه وتعيد إليه حيويته إلّا الحملات العسكرية الفرنسية إلى كل من مصر وإيطاليا، حيث أعيد الاهتمام بالسجاد الشرقي وأخذ الفرنسيون يتنافسون في اقتنائه. فمدام ريكامييه ـ Madame Récamier (١٧٧٧ ـ ١٨٤٩)[١٢] التي اشتهرت بصالونها الأدبي الذي كان يضم النخبة من رجالات عصرها، خاصة أبان حكومة القناصل في فرنسا (١٧٩٩ ـ ١٨٠٤) والعهد الامبراطوري، كانت تحرص تلك السيدة على تغطية كل شبر من أرض منزلها بالسجاد التركي والمصري.

أمّا الغنيمة الكبرى التي حصل عليها الجيش الفرنسي من السجاد الروسي الفاخر، والتي بلغت حوالي ألفي سجادة، لم يصل منها إلى فرنسا سوى القليل مما حمله من تبقى من الجيش المهزوم. وحتى تلك الكمية قد تبعثرت فيما بعد عندما توزعها قواد ذلك الجيش بنسبة ما يحق لكل واحد منهم من حصص غنائم الحرب.

ولقد تأثر الفنانون الأوروبيون بجمال السجاد الشرقي ورسوماته، فحرصوا على إبرازها بشكل واضح في الكثير من لوحاتهم، وكأنها كانت هي المقياس لجمال تلك اللوحات. كما انها قد ألهمت الكثير من فناني العصر الحديث كالفرنسي جورج براك ـ Braque (١٨٨٢ ـ ١٩٦٣)[١٣]، والاسباني بيكاسو ـ Picasso (١٨٨١ ـ ١٩٧٣)[١٤]، وماكس أرنست ـ Max Ernst (١٨٩١ ـ ؟)[١٥] الرسّام السريالي الألماني المولد الفرنسي النشأة.

ومع تقدم الحضارة الحديثة، تقدمت صناعة السجاد، وظهرت آلات حياكة متطورة التقنية أخذت دورها إلى جانب أنوال حياكة السجاد الشرقي اليدوية التقليدية. ابتدأت تلك الآلات تنتج في البداية سجاداً رخيص الثمن كثير الرسوم، وباهر الألوان، ما لبث أن طرأ عليه بعض التحسن من حيث الذوق والنوعية.

ولكن بالرغم من ذلك ومن التسهيلات التي قدمتها تلك الآلات لصناعة السجاد، إلّا أن



□ سجادة صلاة تركية، محاكة بخيوط ذات رسوم ملونة. (القرن السابع عشر أو الثامن عشر)

السجادة الشرقية اليدوية الصنع، بقيت تحتل مكانتها العالية ذوقاً وفناً وجودة؛ وبقيت شعوب الشرق تتبع قواعد وأساليب أجدادها في إنتاج سجاد يدوي بديع.

على هامش البحث
هل بالإمكان قراءة سجادة؟

تحكي لنا أساطير بلاد العجم، أنّ أميراً ابن أحد ملوك فارس ذهب ذات يوم إلى الغابة ليصطاد، فالتقى راعية حسناء، استهوته وملكت قلبه فتقدم منها قائلاً: «هل لك أن تأتي معي، لتصبحي زوجتي وسيدة قصري؟».

فأجابت الراعية بخفر وحياء: «كم كان يسعدني ذلك، ولكن أنّى لي أن أصحبك ولا نكاد نعرف شيئاً عن بعضنا البعض؟ أخبرني أولاً، ما هي صنعتك»؟

— «صنعتي...!» أجاب الأمير بدهشة واستغراب، «أنا ابن ملك هذه البلاد وسأصبح ملكاً عليها بعد وفاة والدي».

— «هذه ليست بصنعة!» أجابت الحسناء الراعية، «إذا كنت تريدني حقاً أن أكون زوجة لك، ما عليك سوى أن تتعلم صنعة مُعَيَّنة تكفيك شر الزمان. مهلتك عام واحد. تكون قد أتقنت خلاله صنعة ما، تعود بعدها إليَّ، وسأكون في انتظارك».

ملأت الدهشة قلب الأمير ووقف مستغرباً أمام حسنائه، ولكنه قبل التحدّي وقرّر تنفيذ ما طلبت، وقفل راجعاً إلى قصر والده لا يشغل باله سوى تفكير واحد وهو كيف يمكن أن يهتدي إلى صنعة شيّقة ومحترمة وفي نفس الوقت تلائمه ولا تجعله أضحوكة أمام بطانة القصر. ومضت الأيام على هذه الحال، إلى أن كان يوماً مضطجعاً على أريكة في غرفة نومه مغطاة بسجادة أرجوانية اللون يداعب حاشيتها الحريرية، وفجأة خطرت على باله فكرة... لماذا لا يتعلم صنعة السجاد؟ صنعة شيّقة ودقيقة! فأسرع إلى والده عارضاً عليه الأمر فتقبّلها الملك وأحضر لولده أمهر صنّاع السجاد في البلاد.

تفرّغ الأمير كلياً لهذا الأمر، ودأب على تعلم تلك الصنعة حتى غدا بعد عام من أمهر الصناع في البلاد لا بل فاق معلميه.

وفي الموعد المحدد، جهّز الأمير نفسه وتوجه إلى الغابة لملاقاة راعيته، وليعرض عليها ما أنجزه خلال عام. ولكن القدر شاء له أن يقع في قبضة جماعة من اللصوص يتكلمون لغة لا يفهمها حملوه معهم بعيداً إلى بلادهم حيث عقدوا العزم على بيعه في سوق العبيد للانتفاع بثمنه.

مضت شهور طويلة على الأمير، وهو قابع في منزل اللصوص ينتظر موعد بيعه، فحلّ به ضجر وضيق شديد كان يحمله على التجوال الدائم في أرجاء المنزل. فوجد مرة، في إحدى زوايا المنزل نولاً قديماً لحياكة السجاد؛ فطلب من حراسه إعارته إياه ليستعين به على تمضية وقته وفي نفس الوقت ينتج لهم سجاداً جميلاً يبيعونه ويستفيدون من ثمنه. وافق اللصوص على طلبه، وزوّدوه بما يلزم من أدوات الحياكة. وابتدأ الأمير يحيك السجادة قاصداً الاستعانة بالرسوم الفارسية التي تحكي قصة أسره ومكان وجوده، آملاً أن يبتاعها أحد التجار الفارسيين فيقرأ رموزها وبالتالي يقصد ملك البلاد ويخبره قصة الأمير.

ولتكتمل الأسطورة، حدث ما كان يتوقعه الأمير، إذ ابتاع السجادة الجميلة، التي كان يجهل اللصوص رموزها، تاجر فارسي سرعان ما أدرك كنه الرسالة المحاكة وأسرع بالعودة إلى فارس ليطلع مليكه على الخطر الكبير المحدق بالأمير الصغير.

استشاط الملك غضباً وهلعاً وأسرع بتجهيز جيش كبير ليقضي به على أولئك الزمرة من اللصوص، وتخليص ابنه من بين أيديهم، إلّا أنّ وزيره الأول ارتأى عليه لضمان سلامة الأمير أن يُزوّد التاجر بمبلغ كبير من المال يعود به إلى اللصوص ويساومهم على شراء صانع السجادة. نجحت الحيلة وأطلق سراح الأمير وقضى بعد حين على أولئك اللصوص وأقيمت الزينات في قصر الملك فرحاً بعودة الأمير واحتُفي «بسجادة الحرية» إذ وضعت على عرش الملك أكثر أماكن القصر رفعة وجاهاً.

أمّا راعيتنا الحسناء، والتي أصابت في حكمتها «صنعة تكفيك شرّ الزمان» فقد عاد إليها الأمير مرة أخرى فوجدها ما زالت تنتظره،

فحملها إلى قصره حيث أصبحت سيدته الأولى.

وهكذا نستنتج أنّ الهدف الأول والأخير من وراء هذه الأسطورة هو تبيان ما كان لرسوم السجاد من معنى ومدى الأهمية التي كان يعيرها أبناء الشرق لتلك الرسومات.

فأهم ما يميز سحر السجاد الشرقي هو تلك الزخرفة الجميلة التي توحي بصور مختلفة وتثير في النفس مشاعر تختلف من شخص لآخر.

ومع الأيام، تطورت تلك الرسوم مع تطور صناعة السجاد وأصبحت ذات طابع تجريدي، ولكنها بقيت تحافظ على نفس المعاني القديمة التي كانت تختلف في آسيا بين بلد آخر. فهي كانت مستقاة من تقاليد وعادات الشعوب ومطبوعة بطابع معتقداتهم الدينية. فرسم العقرب، مثلاً، كان في الهند يرمز إلى تعويذة تحمي من مرض الجذام، أما في بلاد القوقاز فهو يرمز إلى الشجاعة.

وكما نجد في الرسوم، كذلك نجد في الألوان حيث كان لها معانٍ تختلف باختلاف البلدان، فالفنان الحرَفي، كان عليه أن يختار ألوان ما يصنع من السجاد، ليس فقط حسبما يتطلب الانسجام الجمالي للألوان، بل حسبما تتطلب الفكرة المطلوبة ويتفق مع رغبة صاحبها الذي ستعود إليه في النهاية ملكية السجادة.

هل ستعود لملك أو أمير يدوس عليها؟ أم لمسجد تزين أرضه أم أحد جدرانه؟ أم ستكون غطاء باب خيمة أمير كردي؟ كل هذه الأمور كان على الحرفي أن يأخذها في عين الاعتبار.

أمّا لغة الألوان وما تعنيه فهي كثيرة ومتنوعة؟ فالأصفر الذهبي، كان يعني العظمة والثروة. ففي بلاد فارس، كان لون سجاد الأمراء، وفي آسية الصغرى، كان لون الطبقة الراقية من رجال الدين المسلمين. أما عند المصريين فقد كان لون التجدد الأبدي، لما يمثله من أشعة الشمس، وعند أهل الصين كان لوناً إلهياً لأنه كان لون بوذا.

أما البرتقالي، فكان يعني التقوى. والأخضر، وبالأخص اللون الفستقي، كان ولا يزال لوناً مقدساً عند المسلمين، لأنه كان لون راية الرسول الكريم صلعم وهو اللون المختار لأهل الجنة. لذلك، فهو لون ذو اعتبار كبير لدى الأتراك المسلمين الذين لا يستعملونه إلّا في صنع سجاد مساجدهم وسجاد الصلاة العائد لطبقتهم الحاكمة.

وأما الأحمر، فقد كان يرمز بشكل عام إلى السعادة والازدهار، ولكنه عند الهندوس كان يعني الفضيلة والحقيقة. والأزرق، كان اللون الوطني لبلاد فارس ويرمز إليهم بالسماء.

والأزرق الداكن، كان يعني لديهم الأبدية. أمّا لدى الهندوس، فكان يوحي لهم بالابتهال ضد الظلم والطغيان، بينما أهل المغول كان يرمز لهم بالقوة.

وكان الأبيض، لون الطهارة والسلام والعذرية لدى أهل الشرق الأوسط، وكان لون الحداد عند أهل الصين، واللون الذي يجلب الحظ عند المنغوليين. فيما الأسود، كان لون الرجولة لدى أهل فارس، بينما الصينيون، كانوا يجدون فيه القتامة والهرم.

هذا عن بعض ألوان السجاد ومعانيها بالنسبة لأكثرية شعوب آسيا، أمّا إذا تحدثنا عن معاني تصاوير السجاد ورسومها، فيضيق بنا المجال لكثرتها وتنوعها. فهناك الأزهار، الأشجار، الطيور، الحيوانات الخرافية منها والحقيقية، كل هذه التصاوير كانت تحمل في طياتها معاني مقصودة وموجهة، فزهرة اللوتس، كما الأزهار لدينا اليوم، تحاكينا بلغة خاصة تتعلق بالأحاسيس والمشاعر، فاللوتس أيضاً كانت تتكلم بلغة خاصة بها، فهي زهرة مقدسة لدى المصريين القدماء، وزهرة الطهارة لدى الفرس وزهرة الخلود لدى البوذيين في الهند وكانت زهرة النسيان لدى اليونانيين.

الأشجار، أكثرها شهرة «شجرة الحياة» التي كانت وما زالت من أشهر رموز الإنسانية، ولكن كان يختلف رسمها من شعب لآخر. فالبوذيون، كانت شجرة التين، بالنسبة إليهم شجرة الحياة لأن الإله بوذا كان يتأمل تحت ظلالها في شؤون الكون.

ومن الأشجار التي ورد رسمها في السجاد الشرقي، شجرة الكرز التي كانت ترمز إلى الغزارة، وشجرة الصنوبر كانت ترمز إلى طول العمر، وشجرة الخيزران التي كانت ترتبط



□ سجادة فارسية،(اواسط القرن السابع عشر).

بالسعادة وطول العمر.

أما الطيور، فقد كان لها في رسوم السجاد الشرقي، دور مميز وخاصة الداجنة منها كالبط لما كان يرسم منه عادة زوجان متقاربا الأعناق للدلالة على الحب.

النسر والصقر، كانا يرمزان بشكل عام للشجاعة والقوة الخارقة. الطاووس، كان رسمه يرتبط بفكرة الخلود والحماية الإلهية، وشكله وألوانه الجميلة، جعلاه الرسم المفضل على السجاد لدى أباطرة وأمراء العجم.

وأهل المنغول، كانوا يعتبرون الطيور عامة رموزاً للخير والحظ السعيد. وخاصة الببغاء منها لدوره الفعّال في إنقاذ حياة قائدهم جنكيز خان، إذ استطاع طائره الببغاء أن يخدع أعداءه، حيث قلّد صوته وطار إلى جهة معاكسة للجهة التي كان يتواجد فيها القائد وجنوده. فلحقه الأعداء بدلاً من اللحاق بسيده. وطائر النار أو الفونيكس ــ وهو طائر خرافي ــ كان من أشهر ما رسم من طيور على السجاد. وكان دلالة لخلود الروح.

أما رسوم الحيوانات فقد كانت كثيرة ومتنوعة، فالأسد في سجادة فارسية، كان يمثل النصر، والغزال في سجادة صينية كان يشير إلى بوذا رمز النبل والكبرياء. والأفعى بتغيير جلدها، كانت رمزاً للشباب الدائم. هذا إلى جانب العديد من رسوم الحيوانات التي كانت تمثّل كل منها رمزاً معيناً.

جميع تلك الرسومات، من أزهار وأشجار وطيور وحيوانات، إلى جانب العديد من التصاوير الأخرى، كانت جميعها تحاك بأيدي فنانين كبار من الشرق، لتعطينا في النهاية سجاداً شرقياً بديعاً بمجموعة، لا تعد ولا تحصى، من الألوان الجذابة، وبالتالي لم تكن تستعصي على أيّ فنان خبير من فك رموزها وقراءتها ككتاب مفتوح.

أما اليوم، وما يُحاك أو بالأحرى ما يُصنّع من السجاد، وبالرغم من المحاولات الجاهدة التي تبذل ليكون في مصاف السجاد الشرقي، إلاّ أنه لم يصل إلى تلك المرتبة، لا لشيء إلاّ أنه لا يملك خاصيّة الروح الشرقية. لذا ان كان لديك سجادة شرقية أصيلة، حاول قراءتها... فمن يدري، لعلّها تخبرك بقصة شيّقة...!.

●

المـراجـع

(١) المنجد في اللغة والإعلام، دار المشرق، ط. (٢٨) (بيروت ـــ ١٩٨٦).

(٢) Webster's New Geographical Dictionary, G. T. C. Merriam Company Publishers, (Spring field, Massachusetts-1980).

(٣) Webster's Biographical Dictionary, G. T. C. Merriam Company Publishers, (Spring field, Massachusetts-1980).

(٤) د. عُكاشة، ثروت: **تاريـخ الفنّ، التصوير الإسلامي ٥ ـــ الديني والعربي**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط. (١) (بيروت ـــ ١٩٧٧).

الهـوامش

(١) **المنجد في اللغة والإعلام**، دار المشرق، ط. ٢٨، (بيروت ـــ ١٩٨٦)، ص ٢٢٩.

(٢) «The Magic Carpet, Can you Read a Carpet», *International History Magazine*, N° 4, April 1973, p.p. 138-150.

(٣) *Webster's New Geographical Dictionary*, G & C. Merriam Company, Publishers, (Springfield, Massachusetts-1980), p. 762 & 939.

(٤) *Webster's Biographical Dictionary*, G & C. Merriam Company, Publishers, (Springfield, Massachusetts-1980), p. 268.

(*) تلك الناحية، هي مَرَكندا ـــ Maracanda أو سمرقند ـــ Samarkand الحالية. وقد كانت مركزاً مهماً على «طريق الحرير».

(٥) W. B. D., p. 267.

(٦) د. عكاشة، ثروت: **تاريـخ الفن، التصوير الإسلامي ٥ ـــ الديني والعربي**. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ١ (بيروت ـــ ١٩٧٧)، ص ١٢.

(**) عند الحديث عن الفن والتصوير في الإسلام، كان لا بدَّ من العودة إلى بعض المصادر، من أهمها كتاب د. ثروت عكاشة، السابق ذكره، لما يحتويه من دراسة وتحليل بالإضافة إلى قائمة المصادر القديم منها والحديث. هذا وخاصة أنّ صاحب المقال الذي نتعرض لترجمته في هذا العدد، قد جاء حديثه عن تلك الحقبة مبتوراً بل محرّفاً.

(٧) د. عكاشة، ثروت: المصدر السابق، ص ١٣.

(٨) W. B. D. p. 1524.

(٩) Ibid, p. 997.

(١٠) Ibid, p. 1035.

(١١) Ibid, p. 328.

(١٢) Ibid, p. 1242.

(١٣) Ibid, p. 187.

(١٤) Ibid, p. 1182.

(١٥) Ibid, p. 487.

● وَأَنْ لَيْسَ للإِنسانِ إِلاَّ ما سَعَى.

«القرآن الكريم»

● لئن يأخذ أحكم حبله فيحتطب على ظهره خير من أن يأتي رجلاً أعطاه الله من فضله فيسأله إعطاه أو منعه.

«محمد»

● احرصوا على الموت توهب لكم الحياة.

«الإمام علي»



معاهدة الرسول العربي محمد (صلى الله عليه وسلم) مع نصارى نجران

"قسم التوثيق والأبحاث"

المعاهدة الثالثة التي اخترناها من معاهدات النبي صلى الله عليه وسلم، هي «معاهدته مع نصارى نجران»؛ فنكون بذلك قد استكملنا محاولة إلقاء الضوء على العهد النبوي بعد هجرة الرسول (ص) من مكة إلى المدينة حيث قامت أسس الدولة الإسلامية.

بيو ص ٤١ ــ بع ع ٥٠٢ ــ بلا ص ٦٥ ــ ٦٦ ــ بس ج ١/٢ ص ٣٥ ــ ٣٦ (ع ٧٢) ــ بق ج ٢ ص ٤٠ ــ عمخ ع ٩ ــ الأموال لابن زنجويه (خطية) ورقة ٦٦/ ب ــ ٦٧/ ألف ــ الأصل للإمام محمد الشيباني (خطيات مراد ملا، وعاطف، وفيض الله وآيا صوفيا باستانبول، كتاب السير، باب ما جاء عن النبي وأصحابه في أهل نجران وبني تغلب) ــ إمتاع المقريزي (خطية كويرولو) ص ١٠٢٧ ــ ١٠٢٨، ١٦٥٠.

قابل بع ف ٥٠٥، ١١٩٦ ــ بس ج ١/٢ ص ٢١، ٨٥ (ع ١٤، ١٤٢) ــ اليعقوبي ج ٢ ص ٩٠ ــ كتاب الخراج لقدامة بن جعفر (مخطوطة باريس) ورقة ١٢٥ ب ــ بق ج ٣ ص ٤١ ــ بد ١٩/ ٢٠ ــ الفائق للزمخشري مادة «وهف» ــ اللسان مادة «وقف» ــ إمتاع الأسماع للمقريزي ج ١ ص ٥٠٢ ــ أبو عبيد، غريب الحديث (خطية كوبرولو) ورقة ٧٢/ ب.

وانظر كايتاني ١٠:٦٠ ــ اشپرنكر ج ٣ ص ٥٠٢ ــ ٥٠٣ ــ اشپربر ص ٩٠ ــ ٩٢ ــ لين بول في محله ــ وانظر أيضاً تاريخ النسطوريين (في مجموعة تأليفات الآباء الشرقيين Patrologia Orientalis) ج ١٣ ص ١٠٦ وما يليها) ــ ابن العربي في مجموعة المكتبة الشرقية [Bibl. orient] ج ٣/ ٢ ص ٩٤) ــ مجيد خدوري، ترجمة سير الشيباني، (Shaybani's Siyar) فصل ١٧١٠.

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما كتب محمدٌ النبي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لأهل نَجران: إذ كان عليهم حُكمُه في كل ثمرةٍ، وفي كل صَفراءَ ٣ وبَيضاءَ ورقيق، فأفضلَ ذلك عليهم، وتَرَكَ ذلك كلّه لهم، على ألفي حُلّةٍ من حُلل الأواقي: في كل رَجَب ألف حُلّة، وفي كل صَفَر ألف حُلّة، كل حُلّة أوقية من الفضة. فما ٦ زادت على الخَراج، أو نَقَصَت عن الأواقي فبالحساب. وما قَضَوا من دروعٍ، أو خيلٍ، أو ركابٍ، أو عروضٍ أُخِذَ منهم بالحساب. وعلى نَجران مؤنةَ رُسُلي، ومتعتُهم، ما بين عشرين ٩ يوماً فما دون ذلك، ولا تُحبَس رُسُلي فوق شهر.

وعليهم عارية ثلاثين درعاً، وثلاثين فرساً، وثلاثين بعيراً، إذا كان كيد باليمن ومَعَرَّة. وما هَلك مما أعاروا رُسُلي من ١٢ دروعٍ، أو خيلٍ، أو ركابٍ، أو عروضٍ، فهو ضمين على رُسُلي، حتى يؤدُّوه إليهم.

ولنجران وحاشيتها، جِوار الله وذِمّة محمدٍ النبي رسولِ الله ١٥ على أموالهم، وأنفسهم، ومِلّتهم، وغائبهم، وشاهدهم وعشيرتهم، وبِيَعهم وكلّ ما تحت أيديهم مِن قليل أو كثير. لا يُغيّر أُسقُف من أسقفيّته ولا راهب من رهبانيّته ولا كاهن من كهانته. وليس عليهم رُبّيّة، ١٨ ولا دمُ جاهلية. ولا يُحشَرون، ولا يُعشَرون، ولا يطأ أرضَهم جيش. ومن سأل منهم حقاً فبينهم النَصف غير ظالمين ولا مظلومين.

ومن أكل ربا من ذي قَبَلٍ فذِمّتي منه بريئة. ولا يُؤخَذ ٢١ رجلٌ منهم بظلمِ آخَرَ.

وعلى ما في هذا الكتاب جوارُ الله، وذمّة محمدٍ النبي رسول الله، ٢٤ حتى يأتي الله بأمره، ما نَصَحوا وأصلَحوا ما عليهم، غير مثقَلين بظلمٍ.

شهد أبو سفيان بن حرب، وغيلانُ بن عمرو، ومالكُ بن عوفٍ ٢٧ من بني النَصر، والأقرع بن حابسٍ الحنظلي، والمغيرةُ بن شعبةَ. وكتب لهم هذا الكتابَ عبدُ الله بن أبي بكرٍ.

(وقال يحيى بن آدم: وقد رأيتُ كتباً في أيدي النجرانيين، ٣٠ كانت نسختُه شبيهةً بهذه النسخة، وفي أسفله: وكتب علي بن أبو [كذا] طالب، ولا أدري ماذا أقول فيه).

(٢ ـ ٣) بس: هذا كتاب من ـ بلا، بق: لنجران ـ

(٣) بس: إنه كان ـ بس، بلا: كان له عليهم حكمة ـ بع: كان له حكمه عليهم أن في كل ـ شيباني: إذ كان له عليهم حكمة في كل ثمرة صفراء ـ

(٣ ـ ٤) بع: سوداء وبيضاء وحمراء وصفراء وثمرة ورقيق وأفضل عليهم ـ بس: ثمرة... صفراء أو بيضاء أو سوداء ـ بس، بلا: فأفضل فيهم ـ بق: فأفضل عليهم.

(٤ ـ ٥) بق، بلا: ذلك... لنجران ـ بس: كله... على ـ حلة... حلل

(٥ ـ ٦) بع: حلة... في كل صفر ألف حلة وفي كل رجب ـ

(٦) بيو: مع كل حلة.

(٦ ـ ٧) بس، بلا: صفر ألف حلة... كل حلة ـ بق: وكل حلة ـ بس، بلا، بع: أوقية... فما ـ بس: زادت حلل... ـ بع: فما زاد الخراج أو نقص فعلى الأواقي فليحسب ـ بس، بق: نقصت على الأواقي

(٧ ـ ٨) بق: فبحساب ـ بس: وما قبضوا ـ بلا: وما قصوا من درع ـ بع: من ركاب أو خيل أو دروع أخذ ـ بس، بلا، بق: عرض أخذ.

(٨) شيباني: من درع.

(٩) بس: فبالحساب، بق: بحساب ـ بس، بلا، بق: مثواة رسلي ـ

(٩) شيباني: متعتهم عشرون ـ

(٩ ـ ١٠) بلا: رسلي شهراً فدونه ولا يحبس ـ بس: رسلي... عشرين يوماً فدون ذلك ـ بق: فدون ذلك ـ بع: عفى أهل نجران مقري رسلي عشرين ليلة فما دونها... ـ بق:: يحبس رسولي ـ

(١١) بع: فرساً ـ بعيراً ـ درعاً (بتقديم وتأخير) ـ خطيات الشيباني «قوساً» بدل «فرساً» (وهو سهو الكتابة).

(١٢) بس: باليمن كيد ذو مغدرة ـ بع، بلا: باليمن ذو معذرة، بق: باليمن ومغدرة ـ لسان: باليمن ذات غدر ـ أعاروا رسولي ـ على رسولي ـ شيباني: كان باليمن ذي مغدرة ـ يعار رسلي ـ

(١٣ ـ ١٤) بع: رسلي... فهو ضامن على رسلي ـ بلا: رسلي... من خيل ـ بس، بلا: أو ركاب...

فهو ضمان.
(١٤) بلا: ضمن... حتى يردوه.
(١٥ ــ ١٦) الزمخشري: ذمة الله وذمة رسوله على ديارهم وأموالهم وثلتهم وملتهم وبيعهم ورهبانيتهم وأساقفتهم وشاهدهم ــ
(١٦ ــ ١٨) شيباني: على أنفسهم، وأموالهم، وارضهم، وملتهم، وغائبهم، وشاهدهم، وعبادتهم (نسخة: عماراتهم)، وبيعهم، ومثلهم (نسخة: سلمهم). لا يغير أسقف (نسخة: أسقفاً) من سقيفاه (نسخة أقفاه) ولا راهب من رهبانيته، ولا واقه من وقيها (٥). وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير. وليس عليهم دياته (نسخة: ديانه) ــ
(١٥ ــ ٢٠) بـع: ذمة الله رسوله على دمائهم وأموالهم وملتهم وبيعهم ورهبانيتهم وأساقفتهم وشاهدهم وغائبهم ــ وعلى أن لا يغيروا أسقفاً من سقيفاه ولا واقهاً من وقيهاه ولا راهباً من رهبانيته وعلى أن لا يحشروا ولا يعشروا ــ حقاً فالنصف بينهم بنجران على أن لا يأكلوا الربا ــ
(١٥) بس: حاشيتهم (بق: حسبها) ــ بق: محمد ... رسول ــ
(١٦ ــ ١٧) بس، بلا: (الكلمات بتقديم وتأخير).
(١٦) بلا: شاهدهم وعيرهم وبعثهم وأمثلتهم على ما تحت أيديهم.
(١٧ ــ ١٨) بس: أسقفاً عن أسقفيته (وفي رواية: سقيفاه) ولا راهباً عن رهبانيته ولا واقفاً عن وقفانيته ــ بلا: واقه من وقاهيته ــ اللسان: وأن لا يغير واقف من وقيفاه.
(١٨) «ليس عليهم ربية إلـخ»، حذفه أبو عبيد في كتاب الأموال، ولكن صرح به وفسره في كتابه غريب الحديث: فراجـع للمعنى قسم «شرح الألفاظ» من هذا الكتاب ــ بيو: دنية ــ شيباني: دياته / ديانه حسب الخطيات.
(١٨ ــ ١٩) بس: ليس ربا ولا دم جاهليته... ومن سأل ــ
(٢٠) شيباني، بلا: + بنجران - بس: + لنجران.
(٢١) بلا: أكل منهم الربا ــ بـع: فمن أكل الربا ــ بس: لا يؤخذ أحد ــ بلا: منهم رجل.
(٢١ ــ ٢٦) بـع: بريئة وعليهم الجهد والنصـح فيما استقبلوا غير مظلومين ولا معنوف عليهم شهد بذلك عثمان بن عفان ومعيقب (كذا والصحيـح: «معيقيب») وكتب
(٢٣) بس، بلا، بق: هذه الصحيفة جوار الله وذمة النبـي... (بلا، بق محمد النبـي) ــ بس: النبـي أبداً حتى ــ
(٢٤) بلا: الله به ما نصحوا ــ بس، بلا، بق: أصلحوا فيما عليهم ــ بلا: غير مكلفين، بق: غير متقلبين.
(٢٦ ــ ٢٧) بس: عوف النصري.
(٢٦ ــ ٢٧) بلا ، بق: عوف... والأقرع ــ بس:... والمستورد بن عمرو أخو بلي والمغيرة...
(٢٨) بس: ... وعامر مولى أبـي بكر.
(٢٩ ــ ٣١) ما بين ( ) في البلاذري فقط.

رواية زنجويه

إن رواية ابن زنجويه شديدة الاختلاف، لا يكفي لها محض الإشارة في الحواشي. وهاكم النص الكامل:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما كتب النبـي محمد رسول الله لأهل نجران:

إذ كان عليهم حكمة أن في كل سوداء وبيضاء وصفراء وثمرة ورقيق. وأفضل عليهم وترك لهم على ألفي حلة. في كل صفر ألف حلة، وفي كل رجب ألف حلة. كل حلّة أوقية. ما زاد الخراج أو نقص فعلى الأواق يحسب. وما قضوا من ركاب أو خيل أو درع أخذ منهم بحساب. وعلى نجران مثوى رسلي عشرين ليلة فما دونها.

وعليهم عارية ثلاثين فرساً، وثلاثين بعيراً، وثلاثين درعاً إذا كان كيد باليمن دون معذرة. وما هلك مما أعاروا رسلي فهو ضمان على رسلي حتى يؤدوه إليهم.

ولنجران وحاشيتها ذمة الله وذمة رسوله على دمائهم وأموالهم وملتهم، وبيعهم، ورهبانيتهم، وأساقفتهم، وشاهدهم وغائبهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير. على أن لا يغيّر أسقفاً من سقيّفاه، ولا واقفاً من وقيّفاه، ولا راهباً من رهبانيته. وعلى أن لا يحشروا ولا يعشروا، ولا يطأ أرضهم جيش. ومن سأل منهم حقاً فالنصف بينهم بنجران.

وعلى أن لا يأكلوا الربا. فمن أكل الربا من ذي قَبل فذمتي منه بريئة. وعليهم الجهد والنصح فيما استقبلوا، غير مظلومين ولا معنوف عليهم.

شهد عثمان بن عثمان، ومعيقيب وكتب. (أما في آخر حديث ابن لهيعة: شهد أبو سفيان بن حرب، وغيلان بن عمرو، ومالك بن عوف من بني نصر، والأقرع بن حابس الحنظلي، والمغيرة بن شعبة).

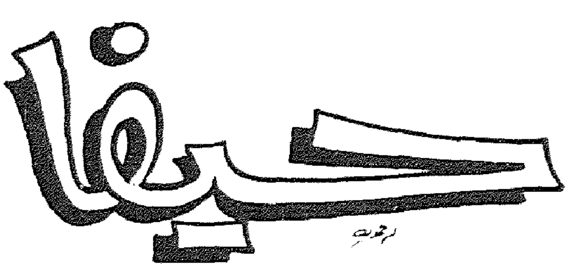
●

حل رموز الاختصارات
المستعملة في أوائل الوثائق

الف ... طرف الوجه من ورقة المخطوطة
ب ... طرف الظهر من ورقة المخطوطة
بآ ... سيرة ابن إسحاق (ترجمتها الفارسية)
بث ... أسد الغابة لابن الأثير
بـح ... الإصابة لابن حجر
بحز ... ابن حزم
بحن ... مسند أحمد بن حنبل
بد ... سنن أبـي داود
بس ... طبقات ابن سعد
بسن ... سيرة ابن سيد الناس
بط ... إعلام السائلين لابن طولون
بـع ... أبو عبيد
بعب ... الاستيعاب لابن عبد البر
بعـح ...ابن عبد الحكم
بعر ... ابن عبد ربه
بق ... زاد المعاد لابن القيم
بك ... ابن كثير
بلا ... فتوح البلدان للبلاذري
به ... سيرة ابن هشام
بيو ... الخراج لأبـي يوسف
ديب ... الديبلي
طب ... تاريـخ الطبري

عمـح ... عبد المنعم خان
قس ... القسطلاني
قلقش ... القلقشندي
ج ... الجزء أو المجلد
س ... سطر
ص ... الصفحة
ع ... عدد أو رقم والمراد به عند ذكر طبقات ابن سعد مثلاً ترقيم ويلهاوزن في طبعه نخباً من هذا الكتاب واشرنا سوى هذا إلى عدد الجزء والصفحة من الطبعة اللايدنية. أو رقم الفصل في كتاب (الأموال)، أو رقم الحديث في كنز العمال وغير ذلك
ف ... الفقرة والفصل
+ [] ... علامة الاضافة والمضاف
... ... علامة الحذف في بيان اختلاف الرواية
ـــ ... علامة الاستمرار أو التكرار في الروايتين
قابل ... يشير إلى الروايات غير الكاملة من الوثائق أو الاقتباسات
انظر ... يشير إلى البحوث الحديثة







□ حيفا: منظر عام من جبل الكرمل.

الموقع الجغرافي

حيفا مدينة ساحلية في الطرف الشمالي للسهل الساحلي الفلسطيني وميناء على البحر المتوسط. وهي ذات موقع جغرافي هام. فالمدينة نقطة التقاء البحر المتوسط بكل من السهل وجبل الكرمل. وقد جعلها البحر أكبر الموانيء في فلسطين، في حين جعلها السهل منطقة زراعية منتجة لجميع محاصيل البحر المتوسط. وأما جبل الكرمل فأكسبها منظراً بديعاً ومناخاً معتدلاً وقد أعطت هذه المزايا الطبيعية الموقع بعداً اقتصادياً هاماً وعسكرياً أيضاً. وما الأطماع الاستعمارية التي تعرضت لها المدينة عبر العصور التاريخية، بدءاً بالغزو الصليبي وانتهاء بالهجمة الصهيونية، إلّا تأكيداً لخطورة هذا البعد العسكري.

ظلّ موقع حيفا هاماً في معظم الأوقات، فهي وجه فلسطين البحري ومنفذها الرئيس إلى العالم الخارجي. وتنعم بظهير غني في المناطق الشمالية لفلسطين، وفي الأردن والعراق، بالإضافة إلى المنطقة الجنوبية السورية. ولا شك في أن وقوعها على خليج بحري عميق جعل منها مرفأ محمياً

طبيعياً يصلح لرسوّ السفن الكبيرة ويعدّ سهل مرج ابن عامر، وهو الظهير المباشر لميناء حيفا، حلقة وصل طبيعية بين الميناء وظهيره البعيد، لأنه يرتبط بالميناء بفتحة طبيعية يجري عبرها وادي نهر المقطع في طريقه إلى مصبّه في خليج حيفا البحري. ويمكن القول إن حيفا انتقلت منذ أوائل هذا القرن من قرية متواضعة لصيادي الأسماك إلى مرفأ بحري للسفن. وقد زادت أهميتها عندما وسّعت حكومة الانتداب البريطاني عام ١٩٢٩ الميناء وأقامت المنشآت الضخمة فيه وجهّزته بكل الوسائل الحديثة. وبحلول عام ١٩٣٣ الذي افتتح فيه ميناء حيفا الحديث أصبحت حيفا الشريان الحيوي لفلسطين والأردن وسورية والعراق وإيران وغيرها من الأقطار الآسيوية. وفي ذلك العام افتتح مدير شركة بترول العراق أنبوب الزيت الذي يصل آبار النفط في كركوك بمستودعاته في حيفا حيث يتمّ تكريره وتصديره إلى الخارج.

وقد ارتبطت حيفا بظهيرها القريب والبعيد بشبكة من الطرق المعبدة والسكك الحديدية. ففي عام ١٩٠٥ افتتح الفرع الغربي للخط الحديدي الحجازي رسمياً في حيفا، وهو الفرع الذي يصل بين حيفا والعفولة وبيسان وسمخ ودرعا. وهناك طريق معبدة تسير بمحاذاة الخط الحديدي متجهة شرقاً عبر سهل مرج ابن عامر وسهل بيسان إلى وادي الأردن، ومن ثم إلى الأردن وسورية والعراق. وتتفرع من هذه الطريق طرق أخرى تؤدي إلى كل من الناصرة شمالاً، وجنين ونابلس ورام الله والقدس والخليل جنوباً.

وفي عام ١٩١٩ وصل خط سكة حديد القنطرة ــ غزة ــ اللد إلى حيفا، ومنها إلى بيروت. وهناك طريق معبدة تسير بمحاذاة هذا الخط. وبذلك أصبحت حيفا ترتبط بمصر عن طريق السهل الساحلي الفلسطيني وسيناء، وتتصل بلبنان عبر سهل عكا بطريق معبدة وخط سكة حديد يمرّان من عكا وبيروت في طريقهما إلى طرابلس الشام. وفي حيفا مطار جوي يربط المدينة بالمطارات الداخلية الأخرى في فلسطين وبالعالم الخارجي.

النشاة والنمو

١ ــ **التسمية**: لم يرد ذكر حيفا في التوراة، ولكنها وردت في التلمود على صورة حيفه، ومعناه: الفرضة والمرفأ. كذلك وردت في الكتابات التلمودية باسم «سكيمينوس». وكان الصليبيون يطلقون على المدينة اسم كيفا Cayphas أحياناً، واسم سيكامينون Sycaminon أحياناً أخرى، ويعني باليونانية شجرة التوت. ولعل المدينة سميت بذلك لكثرة شجر التوت فيها. ويرجح أن آثار سيكيمينوس واقعة في موقع تل السمك الذي يعلو البحر عند حيفا القديمة، وقد سمي بذلك لوجود كميات كبيرة من الأصداف البحرية عند قاعدته، ومنها استخرج الفينيقيون لون الأرجوان القرمزي.

ويشير اسم بوروفيريا أو بورفيريون Porphyrapolis إلى مكان شرقي موقع حيفا الحالية، ومعنى الاسم مدينة الأرجوان.

ولم يرد اسم حيفا في مصادر الفتح العربي. وأقدم ذكر لحيفا أورده الرحالة ناصر خسرو ٤٥٢هـ / ١٠٦٠م، ثم أوردها بالاسم نفسه الشريف الإدريسي ٥٦٠هـ / ١١٦٠م، وياقوت الحموي ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م.

٢ ــ **في التاريخ القديم**: سُكنت منطقة حيفا منذ عصور ما قبل التاريخ. وقد اكتشفت بقايا هياكل بشرية في كهوف جبل الكرمل (ومعنى الكرمل المثمر)، وبجانب طريق الناصرة عند مستعمرة «نفه شعنان»، وفي مغارة الواد قرب عتليت. وتعود كلها إلى العصرين الحجريين القديم والوسيط. وقد عثر في الكهوف على جماجم حيوانات وعلى رسوم منحوتة في الحجارة.

وأول من سكن منطقة حيفا في عصور التاريخ هم العرب الكنعانيون الذين عمّروا المنطقة وبنوا حيفا على بعد كيلومترين جنوبي حيفا الحالية. وقد بقي من هذه المدينة القديمة بعض آثار تدل على مكانها، منها مدافن بلحف جبل الكرمل على شكل ثلاث قناطر.

وعند شواطىء حيفا نشبت معركة بين الفلسطينيين والمصريين في عهد رمسيس

١١٩١ق.م. امتلك الفلسطينيون بعدها الساحل من غزة إلى الجبل. ولما استولى الإسرائيليون في عهد يشوع بن نون على فلسطين جُعلت حيفا من حصّة «سبط منسّى». وقد تقلبت عليها الأحوال فزهت وخربت مرّات كثيرة في عهود الأمم التي تغلبت على فلسطين، كالأشوريين والكلدانيين والفرس واليونان والسلوقيين.

ارتبطت مدينة حيفا بعدّة أحداث ومناسبات دينية جعلت لها مكانة خاصة، إذ يقال إن النبيين الياس واليشع علّما تلاميذهما الديانة في المكان الذي أصبح يطلق عليه اسم «الخضر»، او «مدرسة الأنبياء»، قرب الفنار بين تل السمك ورأس الكروم. والموقع بناء إسلامي قديم وسط حديقة كان يضمّ مسجداً فيه مغارة تضمّ كتابة يونانية. واشتهر جبل الكرمل أيام النبي الياس لانتصاره فوق قمته على أعدائه الوثنيين، حتى إن بعض الناس يدعونه أحياناً باسم جبل مار الياس. ومار الياس يقع قرب الخضر، وفيه قطع معمارية وبقايا كنيسة منقورة في الصخر.

ويذكر الإنجيل أن السيد المسيح وطىء ارض حيفا وباركها حين مرّ بها مع مريم العذراء في طريقه من مصر إلى الناصرة. وقد اتبع الطريق الساحلية هرباً من خطر الحاكم الروماني. وكانت هذه الطريق الساحلية الرومانية تمرّ بحيفا العتيقة، وتقطع مقام الخضر، وتمرّ بالزورة، وتسير مع شاطىء البحر أمام باب الكنيسة اللاتينية.

ومرّ بحيفا بولس الرسول في رحلته الثالثة (٥٨م) قادماً من عكا. وقد حفل جبل الكرمل منذ ظهور المسيحية بالنسّاك، ومنهم القديس يعقوب ناسك الكرمل.

وكانت حيفا تقوم أيام الحكم الروماني كما تقدّم على موقع تل السمك غربي حيفا وجنوبي رأس الكرمل. وتضمّ البقعة أسس ابنية، وأرضيات مرصوفة بالفسيفساء وصخوراً منحوتة، وقبوراً منقورة في الصخر، ومرسى، وفيها إلى الشرق أسس كنيسة رصفت أرضها بالفسيفساء.

وفي تل السمك موقع يسمّى شيقمونا، وهو تحريف شيكما اليونانية ومعناها الجمّيز أو التوت. وفي هذا الموقع جدار حظيرة، ونحت في الصخور، ومدافن منقورة، وأحواض معصرة خمر أرضها مرصوفة بالفسيفساء. ولعل قلمون، البلدة التي تعود إلى أيام الرومان، كانت تقوم على البقعة التي تعرف اليوم باسم تل أبو حوّام قرب مصب نهر المقطّع، وكانت هذه المدينة ميناء بيسان ومجدّو. وقد عثر في حيفا القديمة على رصيف بحري وقبر وحمّام تعود إلى العصر الروماني.

٣ ــ بعد الفتح العربي: لم يكن لحيفا أهمية في الفتح العربي ولا ورد اسمها في مصادر الفتح. ومن القبائل التي استقرت في أطرافها بنو جذام بن عامر بن لام وبنو مخزوم. وقد ظلت حيفا خاملة الذكر، وكانت عكا تبزّها. وجاء أقدم ذكر لها في المصادر الإسلامية في القرن الخامس الهجري (٤٥٢هـ / ١٠٦٠م) حين وصفها ناصر خسرو في سفر نامة بقوله: «ثم غادرتها (أي عكة) إلى قرية تسمى حيفا في طريق به كثير من الرمل الذي يستخدمه صيّاغ العجم والمسمّى بالرمل المكّي. وحيفا مشيّدة على البحر وبها نخل وأشجار كثيرة. وهناك عمّال يصنعون السفن البحرية المسمّاة بالجودي».

٤ ــ خلال الحروب الصليبية: مرّ الصليبيون أول الأمر قرب أسوار عكا وحيفا في طريقهم إلى بيت المقدس ١٠٩٩م ملتزمين الساحل من سفح جبل الكرمل حتى قيسارية. وكانت حيفا تابعة للفاطميين قبل أن يحتلها الصليبيون في تموز عام ١١١٠م بعد حصار. وأصبحت حيفا مع طبرية وبلاد الجليل تحت إمرة تنكريد، وعرفت باسم كايفاس أو كيفا، وورد وصفها في روايات الحجاج والرحّالة المسيحيين، وذكروا أن جانباً من المدينة على الساحل، في حين يشرف جبل الكرمل على الجانب الآخر. وتبدو اهمية المدينة أيام حكم الفرنجة من وصف الجغرافي الشريف الإدريسي ٥٦٠هـ / ١١٦٠م لها بقوله: «وحيفا تحت طرف الكرمل، وهو طرف خارج في البحر، وبه مرسى حسن لإرساء الأساطيل وغيرها. ومدينة حيفا هي فرضة لطبرية، وبينهما ثلاث مراحل خفاف». وإلى العهد الصليبي تعود بقايا القلعة التي بناها الفرنجة جنوبي المدينة عند خربة رشميا غربي «نفه شعنان»، وتضم انقاض بناء

مستطيل فيه برج، ومدافن منقورة في الصخر، وصهاريج.

عادت حيفا إلى المسلمين عام ٥٨٣هـ / ١١٨٨م (كما جاء في كتاب الفتح القسي في الفتح القدسي للعماد الأصفهاني، لا قبل ذلك بعشر سنوات كما ذكر ياقوت الحموي أو دائرة المعارف الإسلامية). ثم استعادها الصليبيون بعد أن أمر صلاح الدين بإخلائها وهدم أسوارها وحصونها ٥٨٧هـ / ١١٩١م، وأعادوا بناءها. وكانت حيفا بموجب صلح الرملة ضمن المنطقة الساحلية (من صور حتى يافا) التي ظلّت بيد الفرنجة.

تأسست في عام ٦٠٩هـ / ١٢١٢م رهبانية الكرمل (الرهبانيات)، ثم كثر اتباعها وانتشروا في أنحاء أوروبا. وقد اهتم لويس التاسع بتحصين حيفا، وظلّت في حوزة الفرنجة حتى عام ٦٦٣هـ / ١٢٦٥م حيث فتحها الظاهر بيبرس، ثم استولى الفرنجة عليها ثانية فعاد الملك الأشرف خليل بن قلاوون واسترجعها عام ١٢٩١م، وانتهى بذلك الوجود الفرنجي في فلسطين.

٥ ــ **في عهد المماليك**: أوقع المماليك الخراب بحيفا، كما بغيرها من المدن الساحلية، حتى لا يستفيد منها الأعداء. وقد وصف القلقشندي (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) المدينة في «صبح الأعشى» بقوله: «وهي خراب على الساحل». وكانت حيفا خلال العهد المملوكي جزءاً من عمل اللجون الذي كان تابعاً لصفد، والقاعدة الخامسة من قواعد المملكة الشامية.

٦ ــ **في العهد العثماني (وحتى منتصف القرن التاسع عشر)**: انتقلت حيفا إلى العثمانيين في عهد سليم الأول ٩٢٢هـ / ١٥١٦م. وقد أشير إليها في مطلع العهد بأنها قرية في ناحية ساحل عتليت الغربي التابع لسنجق (لواء) اللجون، أحد الوية ولاية دمشق الشام.

بدأ العثمانيون منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر يعمّرون الساحل الشامي، وفيه حيفا، وسارت عملية إعمارها ببطء. وذكرت دفاتر التمليك (الطابو) أن قرية حيفا كانت ضمن إقطاع آل طرباي الذين أصبحوا يعرفون باسم الأسرة الحارثية في مرج ابن عامر ٨٨٥هـ ــ ١٠٨٨هـ / ١٤٨٠ ــ ١٦٧٧م. ولم تعمل هذه الأسرة على تشجيع التجارة مع الأوروبيين على غرار ما فعل فخر الدين المعني في بيروت وصيدا وعكا، ولا عاد تجّار الإفرنج يرتادون ميناء حيفا خوفاً من الأذى. وقد تضررت حيفا بسبب الصراع بين الأمير أحمد الحارثي والأمير فخر الدين المعني، وأخضعها فخر الدين لسيطرته عام ١٠٣٣هـ / ١٦٢٤م، ثم تمّ الصلح بين المعنيين والحوارث في العام نفسه، وعادت حيفا إلى الأمير أحمد الحارثي الذي عمل بعد ذلك على الاهتمام بالميناء، وأعطى الرهبان الكرمليين إذناً ببناء مساكن في الميناء، وضمانات بالحماية.

ضمّ قسم كبير من الأراضي المحيطة بحيفا، وفيها الخليج الشمالي، إلى ولاية صيدا الجديدة في القرن السابع عشر. وقد جعلها بُعدها عن السلطة في دمشق مركزاً للتجارة المهربة، حتى أصبح يطلق عليها اسم مالطة الصغرى. فأصدرت الدولة العثمانية سنة ١٠٢٦هـ / ١٦١٦م فرماناً ببناء الأبراج حول ميناء حيفا لوضع حدّ للتهريب ولهجمات القراصنة (شيد البرج الشرقي سنة ١١٣٦هـ / ١٧٢٣م، والبرج الغربي سنة ١١٢٨هـ / ١٧١٥م) وضمّت حيفا إلى ولاية صيدا، وعملت الدولة على تعميرها وتعمير الساحل كله، فقدمت الإعفاءات والإغراءات، ووفّرت الأمن والحماية للسواحل، فأدّى ذلك كله إلى تحوّل العناصر السكانية نحو الساحل، وإلى ازدهار تجاري وعمراني، بعد أن كانت السواحل مهجورة منذ إخراج الصليبيين عام ٦٩١هـ / ١٢٩١م.

وفي منتصف القرن الثامن عشر خرّب الشيخ ظاهر العمر حيفا القديمة، وبنى إلى الجنوب الشرقي منها، عند نهاية الخليج، بلدة سمّاها العمارة الجديدة، ثم غلب عليها اسم حيفا الجديدة، وأقام فيها برجاً، وبنى حولها سوراً له بوابتان، وقلعة على نتوء صخري يشرف على المدينة من الناحية الجنوبية. وشيّد أبناء الشيخ ظاهر الجامع والسراي. وأقام الكرمليون ديرهم على قمة الجبل عام ١١٨١هـ / ١٧٦٧م، على مسيرة ٣ كم من حيفا.

صارت حيفا، بعد الشيخ ظاهر، إلى أحمد باشا الجزار، واحتلها كليبر عام ١٢١٤هـ / ١٧٩٩م، وأقام نابليون قيادته على جبل الكرمل، واتخذ الدير مشفى لجرحاه ولمرضى الطاعون أثناء حصار عكا، ثم أحرقه لمّا انسحب إلى مصر (الحملة الفرنسية). وقد أعادت الدولة العثمانية حيفا إلى سلطتها وجدد عام ١٢٤٣هـ / ١٨٢٧م بناء الدير الكرملي. ثم دخلت حيفا ـ كسائر سورية ـ تحت حكم إبراهيم باشا حتى عام ١٢٥٦هـ / ١٨٤٠م. وقد زارها عام ١٢٤٨هـ / ١٨٣٢م الشاعر الفرنسي لامرتين وتغنّى بروعة خليجها وسهلها وجبلها في كتابه «ذكريات وانطباعات وأفكار ورؤى خلال رحلة المشرق ١٨٣٢ ـ ١٨٣٣»، أو «مذكرات مسافر» المطبوع في باريس عام ١٨٣٥.

٧ ـ أواخر العهد العثماني (حتى نهاية الحرب العالمية الأولى): ظلّت حيفا حتى القرن التاسع عشر قرية ضئيلة الشأن بلغ عدد سكانها ٤٠,٠٠٠ نسمة تقريباً في أوائل القرن المذكور. ولكنها أخذت بعد ذلك تنمو بسرعة، وبدأ كثير من الأجانب يقصدونها للاستيطان والعمل، أو للكشف العلمي، أو للنشاط التبشيري. وقد سمح لقرابة مائة عائلة ألمانية من فرسان الهيكل (الداويّة) بالنزول في أرض حيفا وأقاموا في حيّ خاص بهم شمالي غرب المدينة كما مرّ من قبل. وبلغ عددهم أواخر القرن نحو ٨٠٠ نسمة.

دشّنت السلطات العثمانية عام ١٣٠٤هـ / ١٨٨٦م أول طريق عربات من حيفا إلى طبرية. وأصبحت حيفا عام ١٣٠٥هـ / ١٨٨٧م مركز قضاء يحمل اسمها (من أعمال لواء عكا التابع لولاية بيروت)، وأقيمت البنايات الجديدة خارج السور، وامتدت إلى شواطىء البحر حيث البساتين والنخيل.

جرى في ١٨٩٢/١٢/١٩ في الطرف الشرقي للمدينة قرب وادي رشميا الاحتفال بافتتاح العمل في سكة حديد حيفا ـ دمشق (فرع الخط الحجازي). وقدم المهندس جورج جفري، مهندس المشفى الإنكليزي في حيفا، تقريره عن مبنى الإرسالية الأنغليكانية الجديد في ١٨٩٣/٦/٢٩.

بدأت السلطات العثمانية استعدادها لزيارة الإمبراطور الألماني غليوم الثاني لمدينة حيفا في طريقه إلى القدس، فبنت رصيفاً على الشاطىء لرسوّ يخت الإمبراطور قرب الحيّ الألماني غربي المدينة، وتم إنشاء طريق عربات بين حيفا ويافا، وأعيد ترميم الجسور، وقد وصف حيفا في تلك الفترة إبراهيم الأسود صاحب مطبعة جريدة لبنان في كتابه «الرحلة الإمبراطورية في الممالك العثمانية» بقوله: «مدينة حيفا قائمة في سفح جبل الكرمل، موقعها يشبه بيروت، وفيها مباني طراز جديد، في مصاف مدن الدرجة الثانية في سورية، بعد أن كانت تعدّ منذ ثلاثين سنة من القرى، معظم تجارتها بالحبوب. وفيها قناصل لجميع الدول إلّا اليونان.. وفي حيفا كثير من الفنادق والمعابد لجميع الطوائف».

ووصفها عام ١٩٠٤ الأب ماري جوزيف الكرملي في مجلة «المشرق» بأنها «أصبحت مدينة عامرة يتوارد إليها الناس».

كانت حيفا مطلع هذا القرن مركزاً ثقافياً مرموقاً في فلسطين، وكان فيها عام ١٩٠١ مدرسة رشدية (حكومية) (تأسست أول مدرسة في حيفا عام ١٢٩٣هـ / ١٨٧٦م)، وأخرى في مسنواس للروم الأرثوذكس، وخمس مدارس أجنبية، ثلاث منها ألمانية ضمّت ٣٨٠ طالباً، واثنتان فرنسيتان. وأصبح عدد المدارس الأجنبية عام ١٩٠٣ ثماني مدارس، أربع فرنسية (إحداها لليهود ضمّت ١٥٠ طالباً) واثنتان إنكليزيتان، وواحدة ألمانية، وأخرى روسية. وفي سنة ١٩٤٢ ارتفع عدد المدارس الحكومية إلى ١٠ مدارس فيها ١,٧٥٠ طالباً، وارتفع عدد المدارس الخاصة إلى ١٨ مدرسة فيها ٤,٤٤٨ طالباً، إلى جانب المدرسة الصناعية.

ومنذ أواخر العهد العثماني والطباعة متقدمة في حيفا، إذ اشتملت المدينة على المطابع التي كانت تقوم بنشر صحف كثيرة كالصاعقة والنفير والكرمل. واشتملت المدينة أيضاً على المكتبات العامة والمتاحف والمسارح التي أوجدت جيلاً مثقفاً من السكان. وقد ساهمت الجمعيات التبشيرية في فتح المدارس والكنائس والمستشفيات والنوادي الثقافية.

تمّ في ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م الافتتاح الرسمي لخط حديد دمشق ــ حيفا (طوله ٢٨٩ كم)، وأجريت تحسينات كبيرة في الميناء، فدخلت حيفا في عهد جديد، إذ اتصلت بدمشق وحوران وشرقي الأردن، وأصبحت ميناء تصدير إلى هذه الأقاليم، ومدخل كل ما يلزمها من أوروبا وأمريكا بدل بيروت. وقد أخذت المدينة تنمو وتتسع في عمرانها وتجارتها على حساب عكا، وزادت وارداتها الجمركية.

كان في المدينة عام ١٩٠٨ ٥ مساجد وتكايا، و ٦ كنائس، و ١٣ مدرسة و ٩ خانات، و ٩٢٨ حانوتاً، و ٤٢٣ مخزناً، و ٨ فنادق، و ٤ مستشفيات، وحمّام واحد، ومصبنتان. وتزايدت أعداد المهاجرين إلى حيفا وجوارها من اليهود الأشكنازيين (اليهود الغربيين) بعد ١٩٠٨. وفي عام ١٩١٢ بدأ بناء المعهد الفني اليهودي «التخنيون» (فتح أبوابه سنة ١٩٢٥). وكذلك بدأت شركة الاستكشاف السورية (برأسمال إنكليزي) أعمال التنقيب عن النفط عام ١٩١٣، وتمّ في العام نفسه افتتاح خط سكة حديد حيفا ــ عكا، وبدأ الاعتماد لتمديد فرع آخر لسكة حديد الحجاز من حيفا إلى القدس عبر العفولة وجنين ونابلس.

بلغ عدد سكان حيفا حسب إحصاء ١٩١٦ نحو ١٠,٤٤٧ نسمة، وكان معظم السكان المسلمين يتجمعون في المنطقة المنخفضة من المدينة (حيفا القديمة)، وتركّز معظم المسيحيين في الجهة الغربية من حيفا، وبعضهم في الضاحية الألمانية. وتركّز اليهود في شرق المدينة، ثم بدأوا منذ أوائل العشرينات يستوطنون حيّ «هادارها كرمل» الذي يعدّ امتداداً لمنطقة هرتسليا.

وضمّت المدينة آنذاك ثلاث مدارس حكومية للذكور والإناث، وعدة مدارس أجنبية، وعشر مطاحن، و ٢٦ محركاً بخارياً لسحب المياه، ومعمل ثلج، وسبعة مصانع خشب، وأربع معاصر زيتون، ومعمل عصير عنب للألمان، ومصنع صابون للصهيونيين. وقد أقامت إدارة الخط الحديدي الحجازي مصنع آلات للخط الحجازي. وكان في حيفا مطابع الكرمل والوطنية والنفير، وصحيفة الكرمل (نصف الأسبوعية)، وصحيفة النفير (الأسبوعية).

٨ ــ خلال الحكم البريطاني (١٩١٨ ــ ١٩٤٨): احتل البريطانيون حيفا في ١٩١٨/٩/٢٣ بعد معركة مع بقايا الجيش العثماني التي كانت تدعمها المدفعية الألمانية المتمركزة في غابات جبل الكرمل. وقد أوصل البريطانيون في العام نفسه خط السكة الحديدية من مصر إلى حيفا فغدت المدينة بذلك عقدة مواصلات هامة داخلية وخارجية، فيها ثلاث محطات للسكة الحديدة، شرقية، ورئيسة، ومحطة الكرمل. كذلك ربط البريطانيون حيفا ببيروت وطرابلس بالسكة الحديدية. ورفع ذلك كله من شأن المدينة، ووسّع نطاق تجارتها وصناعتها، فرحل إليها تجّار الشام ومصر، وتدفق إليها آلاف العمّال.

بدأت السلطات البريطانية في عام ١٩٢٩ توسيع ميناء حيفا الصغير الذي أنشأه العثمانيون سنة ١٩٠٨، وتحويله ميناء حديثاً، وأقامت فيه المنشآت الضخمة، وجهّزته بالوسائل الحديثة. وقد أنشىء حاجزان لصدّ الأمواج، وبلغ طول الرصيف الأساسي ٤٠٠ م، وعمق غوره ٩م، وشيّد رصيف خاص ترسو بقربه ناقلات النفط. وافتتح الميناء رسمياً في ١٩٣٣/١٠/٣١، وبلغت نفقة إنشائه ١,٢٥٠,٠٠٠ جنيه فلسطيني. وقد أصبح ميناء حيفا من أكبر موانىء البحر المتوسط (الثاني بعد مرسيليا)، وفاقت المدينة يافا في التجارة، وبلغ وزن البضائع التي شحنت من ميناء حيفا سنة ١٩٣٧ ضعفي ما شحن من يافا، ووزن ما أفرغ في حيفا في العام نفسه خمسة أضعاف ما أفرغ في ميناء يافا.

نشط مطار حيفا خلال الحرب العالمية الثانية. وساعد على تقدم المدينة تأسيس عدد من الصناعات فيها أو بجوارها، كصناعة الإسمنت، وصناعة الغزل والنسيج، والمطاحن، ومعاصر الزيتون والعنب، ومصانع الثلج والخشب والصابون والآلات الصناعية للخط الحديدي الحجازي، وتجميع قطع المركبات، وانتهاء خط أنابيب شركة النفط العراقية، وبناء مصفاة النفط الكبيرة التي زوّدت جيوش الحلفاء في الشرقين الأدنى والأوسط بما تحتاج إليه من النفط خلال الحرب. وقد

أصبحت حيفا مركز العمل والعمّال في فلسطين، وأنشأ هؤلاء جمعية منظمة وصناديق توفير وجمعيات تعاونية.

قفزت حيفا بين الحربين العالميتين إلى مرتبة كبرى بين مدن الشرق الأوسط، واشتملت على الشوارع المنظمة النظيفة التي تصل بين مركز المدينة وضواحيها، وعلى المحلات التجارية والمخازن الكبيرة والمصانع والفنادق والمساجد والكنائس والمدارس والمستشفيات. وكانت مباني المدينة ترتفع في أنحاء مختلفة من حيفا فتزيد في المرتبة العمرانية لهذه المدينة. وقد خططت المنطقة الممتدة من الركن الجنوبي الشرقي من الخليج البحري حتى مدينة عكا بحيث تشتمل على مناطق فرعية ذات وظائف متخصصة. ففي الجنوب أقيمت منطقة صناعية بالقرب من الميناء، وفي الوسط أنشئت منطقة سكنية ضمّت بدءاً من عام ١٩٣٠ مجموعة مستعمرات صهيونية، مثل «قريات حاييم وقريات موتسكين وقريات يم»، وفي الشمال خصصت الأراضي للزراعة. وأهم شوارع حيفا شارع الملوك (طوله ٣ كم وعرضه ٤٠ م) ويضم معظم المؤسسات التجارية والحكومية. وفي الجهة الغربية من المدينة شاطىء الخياط ووادي الجمال والكولونية الألمانية، وفي الجهة الشرقية شارع الناصرة، فمحطة توزيع الكهرباء، وبالانحراف إلى الشمال جسر وادي رشميا، ثم الكرمل حيث الأبنية الحديثة، وعند سفحه قبر البهاء عباس أفندي وهو من الأماكن السياحية الهامة. وفي نهاية الصعود دير مار الياس (الكرمليت) والفنار. وأما البلدة القديمة، وفيها المسجد الكبير والسوق والمحلات التجارية، فقد احتفظت بطابعها الشرقي.

تطور نمو سكان حيفا من ١٠,٤٤٧ نسمة عام ١٩١٦ إلى ٢٤,٦٣٤ نسمة عام ١٩٢٢، و ٥٠,٤٨٣ نسمة عام ١٩٣١، و ٩٩,٠٩٠ نسمة عام ١٩٣٨، و ١٣٨,٣٠٠ نسمة عام ١٩٤٥.

٩ ـ في ظل الاحتلال الإسرائيلي: هبط مجموع سكان حيفا في أواخر عام ١٩٤٨ إلى ٩٧,٥٤٤ نسمة بسبب الاحتلال الإسرائيلي للمدينة وطرد السكان العرب منها، فأصبح الصهيونيون يؤلفون بعد رحيل معظم العرب ٩٦ ٪ من عدد سكان المدينة. وفي نهاية ١٩٥٠ زاد عدد سكان حيفا بفعل تدفق المهاجرين الصهيونيين للإقامة فيها فوصل إلى ١٤٠,٠٠٠ نسمة. وأخذت المدينة تنمو باطراد بعدئذ. ففي عام ١٩٥٢ كان عدد سكانها أكثر من ١٥٠,٠٠٠ نسمة، وفي عام ١٩٥٥ وصل إلى ١٥٨,٧٠٠ نسمة، ثم زاد إلى ١٨٣,٠٠٠ نسمة عام ١٩٦١، وإلى ٢٠٩,٩٠٠ نسمة عام ١٩٦٧، ووصل إلى ٢٢٥,٨٠٠ نسمة عام ١٩٧٣.

واكب تطور النمو السكاني تطور النمو العمراني للمدينة، فهي تواصل امتدادها منذ الخمسينات حتى الوقت الحاضر على طول شاطىء البحر وفوق منحدرات جبل الكرمل وقمته. وقد زادت كثافة السكان والحركة التجارية في حي «هادار هاكرمل» فأصبح مركزاً لتجارة المفرّق وللخدمات وللتسلية بعد أن التحم بقلب المدينة الذي يتحرك نحوه. وبقيت المدينة السفلى (حيفا القديمة) تمثل حيّ الأعمال المركزي بعد أن أجريت على مخططها الهندسي تعديلات كبيرة. وأخذت قمة الكرمل تستقبل جموع السكان الذين يتحركون للسكنى في الأعلى. وأنشئت مشروعات إسكان ضخمة، وظهر عدد من الضواحي الكبيرة مثل «قريات اليعزر» على الساحل، و «روميما الجنوبية» على حافة الكرمل.

وتمتدّ المنطقة الصناعية فوق الأراضي الرملية المحاذية للخليج البحري حتى مدينة عكا، وتعد مدينة الصلب أهم مرافق المنطقة الصناعية. وتمتد الأحياء السكنية إلى الشرق من الخليج فوق قمم ومنحدرات الكرمل، ويتخلّل هذه المباني السكنية متنزهات وأشجار ترصّع الأودية والخوانق والجروف. وأما حيفا القديمة (السفلى) فتتوسع نحو الغرب والجنوب إلى منطقة ساحل الكرمل. فحيفا مدينة متطورة تمتد حالياً فوق الجانب الشمالي الغربي لجبل الكرمل، وفوق الحافة الشمالية لساحل الكرمل، وعلى الشريط الساحلي المحاذي للمنحدر الشمالي للكرمل. ويتوسع العمران أيضاً نحو الطرف الجنوبي لخليج عكا. ونتج عن هذا التوسع زيادة مساحة المدينة من ٥٤ كم^{2} قبل عام ١٩٤٨ إلى ١٨١ كم^{2} في عام ١٩٨٠.

التركيب الوظيفي

تمارس حيفا وظائف كثيرة منذ مطلع القرن الحالي أهمها:

١ ـ **الوظيفة التجارية**: ارتبطت الوظيفة التجارية بأهمية الموقع الجغرافي لحيفا بالنسبة إلى إقليمها الخاص، أو الأقاليم البعيدة. وتتصل المدينة بما حولها بأكثر من وسيلة للمواصلات، وترتبط شبكة شوارعها الداخلية المنظمة بشبكة الطرق والسكك الحديدية الخارجية. ويظهر أثر ذلك في زيادة حركة ميناء حيفا وازدهار الحركة التجارية للمدينة. وقد ساهم فرع خط سكة حديد الحجاز دمشق ـ حيفا في إجراء تحسينات كبيرة في الميناء فدخلت حيفا في عهد جديد وأصبح ميناؤها وسيلة لنقل البضائع المستوردة من الخارج إلى كثير من أجزاء فلسطين والأردن وسورية. وكذلك ساهم الميناء في تصدير كثير من منتجات فلسطين والأقطار العربية المجاورة، كالحمضيات، والقمح والنفط، إلى الخارج.

ويتصدّر ميناء حيفا جميع الموانىء الفلسطينية لأهمية موقعه وموضعه من جهة، ولكثافة الحركة التجارية المرتفعة فيه. ففي عام ١٩٣٦ مثلاً استورد عن طريق ميناء حيفا ٧٥٦,٧٢٢ طناً من البضائع مقابل ١,١٦٤,٠٢٨ طناً من الصادرات. وتدرّ الواردات والصادرات على الميناء عائدات كبيرة وصلت قيمتها في عام ١٩٣٩ إلى نحو ٧,٨ مليون جنيه فلسطيني من الواردات ونحو ٢,٩ مليون جنيه فلسطيني من الصادرات. ويعجّ الميناء بحركة دائبة للسفن التجارية. وقد وصل أعلى رقم لعدد السفن الداخلة إلى الميناء في عام ١٩٤٢ نحو ٨,٠٠٠ سفينة ومثل هذا العدد للسفن الخارجة منه وبلغ مجموع حمولة كل من الداخلة والخارجة ١,٤ مليون طنّ.

جذبت حيفا التجار من بعض المدن الفلسطينية والسورية والمصرية للعمل فيها. وشيّدت المحلات التجارية التي تزين الشوارع الرئيسة والساحات الكبرى في المدينة، مثل شوارع اللنبي وستانتون واللورد بلومر، وساحة الخمرة وساحة الجرينة. وأقيمت الأسواق التجارية التي تعرض فيها مختلف السلع كالسوق الأبيض وسوق الشوام وغيرهما. وكانت أسواق حيفا ملتقى كثير من سكان القرى العربية المحيطة بالمدينة يعرضون فيها منتجاتهم ويشترون ما يلزمهم منها. وتغيّر الوضع بعد عام ١٩٤٨ فأصبحت حيفا مركزاً تسويقياً للمستعمرات الصهيونية المجاورة.

قامت (إسرائيل) بعد عام ١٩٤٨ بتطوير ميناء حيفا، فتضاعف عدد الأرصفة والمنشآت فيه، وغدت المخازن تستوعب ٧٥,٠٠٠ طن. وفي عام ١٩٥٤ أنشىء ميناء آخر متمم لميناء حيفا عند مصب نهر المقطّع. وقد أجريت عليه تحسينات فأصبح يضم في عام ١٩٦٤ حوضاً لبناء وإصلاح السفن، ورصيفاً عائماً، ومرسى لسفن الصيد. ومنذ أن منعت سلطات الاحتلال البواخر التجارية من الرسوّ في ميناء يافا عام ١٩٦٥ أصبح ميناء حيفا أكبر موانىء الأرض المحتلة. وزادت حركة العمل فيه فأصبحت تعادل نحو ٥٦ ٪ من مجموع حركة العمل في الموانىء.

بلغ مجموع السفن التي دخلت ميناء حيفا عام ١٩٥١ ـ عدا ناقلات النفط ـ ١,١٦٨ سفينة، في حين كان مجموع السفن التي دخلت موانىء فلسطين المحتلة تلك السنة ١,٣٧٠ سفينة. وفي عام ١٩٦٧ دخلت هذه الموانىء ٢,٣٧٢ سفينة منها ١,٥٤٥ سفينة دخلت ميناء حيفا. وفي عام ١٩٦٥ سجّل ميناء حيفا رقماً قياسياً في عدد المسافرين عن طريقه إذ وصل إلى نحو ربع مليون مسافر.

٢ ـ **الوظيفة الصناعية**: بدأت حيفا تعيش نهضة صناعية منذ الثلاثينات حين أقامت إدارة المعارف في المدينة عام ١٩٣٦ مدرسة صناعية تعلّم عدداً من الحرف الفنيّة كالنجارة والبرادة والحدادة وإصلاح السيارات وغيرها. وقد تخرجت من هذه المدرسة مجموعات صناعية خبيرة، وبلغ عدد طلبتها عام ١٩٤٦/٤٥ نحو ٦٩ طالباً.

وأنشئت في حيفا النقابات والجمعيات التعاونية التي ضمّت أصحاب المهن. وقد استوعبت مصفاة شركة التكرير المتحدة كثيراً من العمّال. وعمل آلاف العمّال في قطاع النقل

والمواصلات، ولا سيما في أعمال الميناء والسكك الحديدية والشاحنات.

تطورت الصناعة في حيفا بعد عام ١٩٤٨ واستمرت في توسعها، ولا سيّما داخل المنطقة الصناعية قرب الخليج البحري. وفي حيفا حالياً مصنعان لإنتاج وتجميع السيارات، ومصانع لإنتاج المواد الكيمائية والبتروكيميائية والأسمدة العضوية المستخلصة من النفايات ومياه المجاري المنقاة. وفيها مركز صناعي لصناعة الطائرات، ومعهد التخنيون الذي يشرف على تخريج الخبرات الفنّية عامة والصناعية خاصة. وتشتمل حيفا على مكاتب شركة السكك الحديدية التابعة للصهيونيين. وفيها شركة كهرباء، وشركة سولل بونيه للمقاولات، وشركة زيم للملاحة، وشركات أخرى. وتساهم منطقة الميناء بتوفير عمل لنحو عُشر سكان المدينة، وتساهم الصناعات في إيجاد فرص عمل للكثير من العمّال.

٣ ـــ الوظيفة الإدارية: أصبحت حيفا مركزاً لقضاء حيفا منذ أواخر القرن التاسع عشر عندما تمّ تعيين «قائمقام» للقضاء. وتألف قضاء حيفا عام ١٨٩٩م من مدينة حيفا وناحية قيسارية و ٦٢ قرية. وفي أثناء الحرب العالمية الأولى كان قضاء حيفا يتألف من ٣ نواح و ٨٤ قرية. وفي عام ١٩٤٥ ضمّ القضاء ٥٢ قرية و ١٤ عشيرة. بلغت مساحة القضاء آنذاك ١,٠٣١ كم^2 امتلك الصهيونيون منها ٣٦٤ كم^2، أي ٣٥,٣ ٪ من مجموع مساحة القضاء. وبلغ مجموع سكان القضاء ٢٢٤,٦٣٠ نسمة، منهم ١٠٤,٥١٠ صهيونيين، أي أن نسبة الصهيونيين في أواخر عهد الانتداب كانت ٤٦,٥ ٪ من مجموع سكان القضاء. وقد احتفظت حيفا بعد الاحتلال الصهيوني بمكانتها كمركز إداري لمقاطعة حيفا التي أصبح معظم سكانها صهيونيين بعد طرد سكانها الأصليين منها.

٤ ـــ الوظيفة الزراعية: تعدّ هذه الوظيفة ثانوية بالنسبة إلى وظائف حيفا الأخرى، فالمدينة تجارية وصناعية أساساً بالرغم من أنها تمتد في وسط زراعي يتفاوت في خصائصه بين الزراعة الجبلية والسهلية. وتشغل الغابات الطبيعية مساحة واسعة من الأرض الزراعية حول حيفا، وبخاصة فوق جبل الكرمل. ولا شك في أن وجود الغابات الجبلية المطلّة على شاطىء البحر المتوسط يجعل من منطقة حيفا بيئة سياحية جاذبة.

وفي عام ١٩٤٣ بلغ مجموع إنتاج قرى قضاء حيفا العربية من القمح ٤,٣٩٢ طنّاً، في حين أنتجت المستعمرات الصهيونية في القضاء ٤,٣٩٢ طنّاً. وقد أنتجت هذه القرى العربية في ذلك العام من الزيتون ٣,٩٠٠ طن، ومن الخضر ١٣,٣١٠ أطنان، ومن الفواكه، عدا الحمضيات، ٤٣٦ طنّاً.

وتسود حالياً في حيفا زراعة الأشجار بالإضافة إلى الخضر التي تجد سوقاً رائجة لها في مدينة حيفا. ●

المراجع:

- محمد عدنان بخيت: حيفا في العهد العثماني الأول، دمشق ١٩٧٨.
- الأب ماري جوزيف الكرملي: حيفا، ماضيها ومستقبلها، كانون الثاني ١٩٠٤.
- رفيق التميمي ومحمد بهجة: ولاية بيروت، القسم الجنوبي، بيروت ١٩٧٩.
- مصطفى مراد الدباغ: بلادنا فلسطين، ج ٧، ق ٢، بيروت ١٩٧٤.
- سعيد حمادة: النظام الاقتصادي في فلسطين، بيروت ١٩٣٩.
- ياقوت الحموي: معجم البلدان، بيروت ١٩٥٧.
- ابن شدّاد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، دمشق ١٩٦٣.
- العماد الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، القاهرة ١٩٦٥.
- الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، روما ١٩٧٤.
- ناصر خسرو: سفرنامة (مترجم)، بيروت ١٩٧٠.
- احمد الخالدي الصفدي: تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني، بيروت ١٩٦٩.
- ميخائيل نقولا الصبّاغ العكاوي: تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني، حريصا، لبنان.
- خريطة فلسطين: مقياس ١ : ٥٠,٠٠٠، لوحة حيفا.
- Archdeacon Dowling: The Town of Haifa, 1914.

□ نقلاً عن الموسوعة الفلسطينية الجزء الثاني ١٩٨٤.

دائرة المعارف

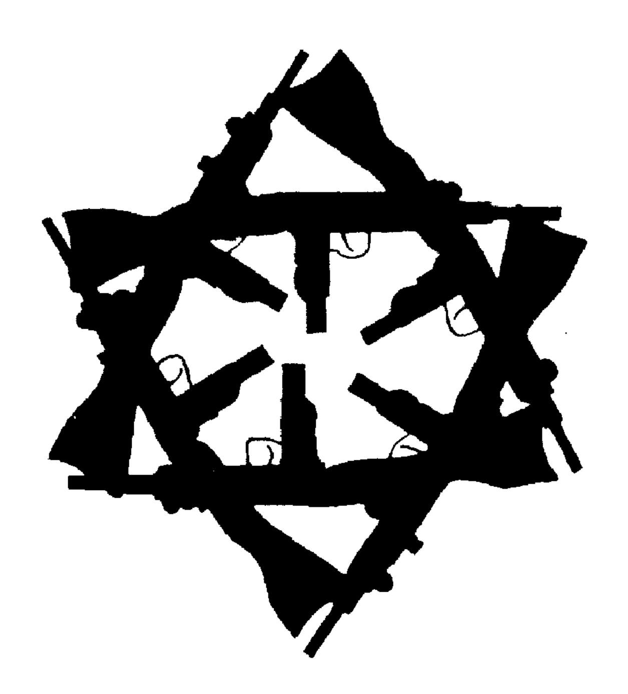
بروتوكولات حكماء صهيون

● من أشهر وأخطر المطبوعات المعادية لليهودية. وقد نشرها أولاً باللغة الروسية سيرجي نيلوس أحد الموظفين الروس في عام ١٩٠٥ (وهناك إحدى النسخ الأصلية منها في المتحف البريطاني) مدعياً أنه استلم المخطوطة في عام ١٩٠١ من صديق له حصل عليها من امرأة سرقتها من أحد أقطاب الماسونية في فرنسا. وتضم دروساً ألقيت على التلامذة اليهود في باريس بعبارات تقطر سماً وحقداً ضد الأغيار (والأغيار هم ألغوييم عند اليهود أي الأقوام الأخرى غير اليهود)، وتضع الخطط للتغلب عليهم والسيطرة على العالم. ومن هنا جاءت فكرة «المؤامرة اليهودية العالمية» التي ارتبط ذكرها بالبروتوكولات. ويكشف الكتاب عن تأثر كاتبه الواضح بالفكر العنصري للقرن التاسع عشر، ون ذلك التأكيد على سنن الطبيعة والقوة بدلاً من الحق، وعلى معاداة الثورة الفرنسية ومبادىء الحرية والمساواة والإخاء، والنيل من مكانة المرأة ومن دور الرأسمال والصناعة الحديثة.

ويؤكد الكاتب أن السياسة لا تخضع للأخلاق، وأن على اليهود أن يستعملوا الحيلة والدهاء والنفاق ويستغلوا الحريات العامة وإمكانات النقد لتقويض كيان الدول، ويسعوا لإيقاعها في الحروب على ألا تؤدي هذه الحروب إلى تعديلات في حدود الدول أو إلى مكاسب إقليمية ليتمكن رأس المال فقط من الخروج بالغنائم. وينبغي تركيز المنافسة في المجتمع ليجري الجميع نحو بريق الذهب، ويصبح الدين والسياسة مهزلتين ويسود راس المال كل شيء.

وقد اكتسح الكتاب، لعدة سنوات، الفكر في أوروبا حتى قيل: إنه أصبح كتاب رائج في العالم بعد الكتاب المقدس. كما أنه ترجم إلى العربية وأثر في عقول بعض الناس ردحاً من الزمن. ولا شك أن أفكار الكتاب أصابت الأوساط الأوروبية المحافظة في الصميم فوجدت فيه تفسيراً لكثير من المظاهر السياسية والاجتماعية والأخلاقية الحديثة التي أرعبتها. ولكن مراسل جريدة التايمس اللندنية في استانبول أعلن في عام ١٩٢١ أن الوثيقة مزورة من أولها إلى آخرها، فقد عثر على أصلها في كتاب فرنسي جاء به مهاجر روسي اشتراه من ضابط سابق في الأوخرانا (الشرطة السياسية القيصرية). وكان الكتاب المذكور يحمل مكان النشر في جنيف وتاريخه ١٥/١٠/١٨٦٤، ونفد من الأسواق منذ سنين طويلة، وتضمن هجوماً مستتراً على حكم نابليون الثالث بشكل ٢٥ حواراً بين مونتيسكيو ومكيافيلي، وعنوان الكتاب: «حوار في الجحيم بين مكيافيلي ومونتيسكيو، أو سياسة مكيافيلي في القرن التاسع عشر، بقلم: معاصر».

وأدى نشر هذا الكتاب إلى سجن المؤلف المحامي موريس جولي. ووجدت نسخة منه في المتحف البريطاني. ولدى مقابلة الكتابين تبين أن بروتوكولات حكماء صهيون لم تتأثر فقط بالمطبوع الفرنسي، وإنما تضمنت اقتباسات منه بالنص تقريباً. وبمزيد من التحقيق بدت البروتوكولات وكأنها من أشهر التزويرات السياسية في التاريخ. وقد أسند المؤرخ الروسي فلاديمير برستيف نشرها إلى إيعاز من الشرطة السياسية الروسية للنيل من الحركات الثورية والليبرالية وأفكار الثورة الفرنسية، ولمّ الشعب حول القيصر والأرستقراطية والكنيسة. ولا شك أن تركيز البروتوكولات على هذه العناصر يؤيد الانطباع.



وبالنظر للسمعة الشائنة التي اكتسبتها هـذه البروتوكولات فقد استفاد الصهيونيون من ذلك بإرجاع أي نقد ضدهم إلى الوقوع في حبائل البروتوكولات. ويعتبر التعامل بالبروتوكولات أو الاستشهاد بها في الغرب الآن دليلاً على معاداة السامية.

وقد لوحظ أن تصرفات الصهيونية و (إسرائيل) جاءت مصداقاً لما أوردته البروتوكولات من أفكار وتوقعات، ومن ذلك الارتباط الأخطبوطي للكيان الصهيوني بالكيانات اليهودية عبر العالم، مما يعطي صدى لفكرة الأفعى الرمزية التي يتردد ذكرها في البروتوكولات بجسمها وذنبها الممتد حول العالم ورأسها المستقر في (إسرائيل). ومنها أيضاً التأكيد على الصحافة وسيطرة اليهود عليها، واستخدام المال والإعلام والعلم في التأثير على الدول، والاعتماد على أي أسلوب مهما كان غير أخلاقي كالرشوة والفساد والمرأة والغش والإرهاب، ومنها أن على الدولة اليهودية ـــ كما تقول البروتوكولات ـــ أن تعتمد على العنف والرياء، وعلى اليهود أن يستغلوا الخلافات بين الدول ويبسطوا نفوذهم عليها ولا يتركوا اتفاقاً يتم دون أن يكون لهم ضلـع فيه.

ولئن لاح كل ذلك لبعض الباحثين دليلاً على دقة الملاحظة والإحساس وسعة النظر مما يمتاز به المزوّرون عموماً فإن باحثين آخرين وجدوه برهاناً على صحة البروتوكولات وتطبيقاً مخيفاً لوصايا حكماء صهيون في عودة رأس الأفعى إلى القدس (تأسيس إسرائيل) بعد إصابة أوروبا بالدمار والخراب. ومما يلفت النظر تزامن الوثيقة مـع المؤتمر الصهيوني الأول. ●

المــراجــع:

— The Jewish Peril: **Protocols of the Elders of Zion,** London 1920.
— Cohn, N. : **Warrant for Genocide,** London 1961.
— **The Times,** 17 and 18 Aug. 1921.

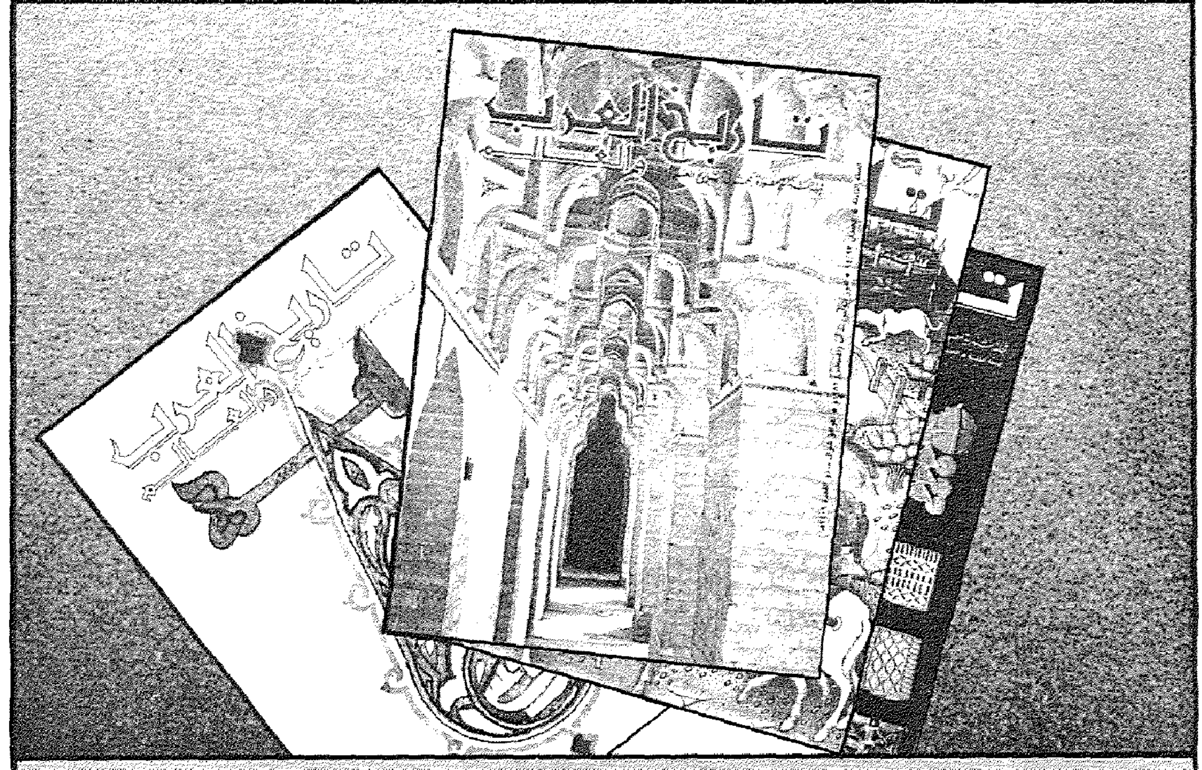


تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي



صدر العدد الأول في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٨
تصدر في منتصف كل شهر عن « دار النشر العربية »
صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير



بناية ابو هليل - شارع السادات - بيروت - لبنان - ص . ب . / ٥٩٠٥ / هاتف : ٨٠٠٧٨٣

ARISTOTELIS STAGIRITAE, PERIPATETICORVM PRINCIPIS DE ANIMA LIBER PRIMVS.

cum Auerrois Cordubensis Commentarijs.

SVMMAE LIBRI.

In Prima proponitur nobilitas, ac difficultas scientiae ipsius Animae.

In Secunda Antiquorum narrantur opiniones de Animae essentia.

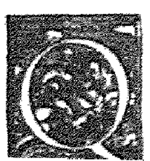
In Tertia eaedē confutantur opiniones: Adducunturq; nonnullae circa Animae unitatem quaestiones.

Summae Primae Caput Primum. *Quas ob res Animae cognitio & nobilis sit, & difficilis.*



Onorum, & honorabilium notitiam opinantes, magis autem alteram altera, aut secundum certitudinē, aut ex eo quòd & meliorum, & mirabiliorū est: ppter vtraque haec animae historiam rōnabiliter vtiq; in primis ponemus.

Vide [illegible]



Voniam de rebus honorabilibus est scire aliquid de rebus, quae differunt abinuicē, aut in subtilitate, aut qa sunt cognitae per res digniores, & nobiliores, necessariū est propter haec duo ponere narrationem de anima positione praecedenti.

1



Ntendit per subtilitatem confirmationem demonstrationis. Et intendit per hoc, quod dixit aut quia sunt cognitae per res digniores & nobiliores, nobilitatem subiecti. Artes enim non differunt abinuicē, nisi altero istorum duorum modorum, s. aut confirmatione demonstrationis, aut nobilitate subiecti, aut vtroq; v. g. quoniam Geometria excedit Astrologiam per confirmationem demonstrationis. Astrologia autem excedit illam nobilitate subiecti. Et dixit, necessarium est propter haec duo, &c. idest necessarium est, quia haec duo inueniuntur in scientia de anima, vt procedat sermo de ea ante alias scientias. Et manifestum est consyderantibus: quoniam subiectum huius scientiae est nobilius alijs: & [illegible] demōstratio eius est magis firma. Et incepit sermocinari ita, Qm̄ de rebus, &c. inducendo hoies ad amorē sciae, & sermo eius est in forma syllogismi categorici. & qd̄ dicit &, qa nos opinamur q; cognitio est de rebus honorabilibus, & delectabilibus, & q; scientiae superant se adinuicem, aut propter cōfirmationem demonstrationis, aut propter nobilitatem subiecti, aut propter vtrunq; sicut inuenimus in scientia de anima, scilicet quia superat in his duobus alias scientias, praeter scientiam Diuinam: necessarium est opinari q; scientia animae antecedit alias scientias: & ideo posuimus eam inter omnia quaesita positione praecedenti.

[illegible]

Videtur autem & ad veritatem omnē cognitio ipsius multum conferre: maxime autem ad naturam. est enim tanquam principium animalium.

10 Et nos videmus etiam quòd cognoscere eam adiuuat magno iuuamento in omni veritate; & maxime in natura: est enī quasi principium animalium.

[illegible]

2 Cùm demōstrauit causam, propter quam debet esse haec scientia magis honorabilis, & praecedēs alias scientias nobilitate, incepit etiam demonstrare vtilitatem huius scientiae, dicendo Et nos videmus etiam quòd cognitio, &c. Et intendit per omnem veritatē scientias speculatiuas, & intendit per hoc, quod dixit & maxime in natura, i. & maxime in scientia Naturali. Deinde dedit causam, propter quā magis adiuuat Naturalē scientiam q̃ aliam, dicendo est.n. * quasi principium animalium. i. & causa in hoc est, quia cognoscere de animalibus est maxima cognitio partium naturalium: & anima est principium aīalium. vnde necessarium est vt scire de aīa sit necessarium in cognitione animaliū, non tantum vtile. Et debes scire q; iuuamentum scientiae animę ad alias scientias inuenitur tribus modis. Quorū vnus est sm̄ q; est pars illius scientiae: immo nobilissima partium eius, sicut habet dispositionem cum scīa Naturali. Aīalia.n. sunt nobilissima corporum gn̄abilium, et corruptibilium, anima autē est nobilius omnibus, quae sunt in animalibus. Secundus est, quia dat pluribus

30 scientijs plura principia: vt scientiae Morali, s. regendi ciuitates, & Diuinae. Moralis enim suscipit ab hac scīa vltimum finem hominis, in eo q; est homo, & scientiam suae substantiae, quae sit. Diuinus autem suscipit ab ea substantiam subiecti sui. hic enim declarabitur, qm̄ formae abstractae sunt * intelligentiae, & alia multa de cognitione dispositionum consequentium intelligentiam, in eo q; est intelligentia, & intellectus. Tertius vero est commune iuuamentum: & est facere acquirere confirmationem in primis principijs. quoniam ex ea acquiritur cognitio causarum primarū propositionum, & cognitio alicuius per suam causam est magis firma,

40 quàm sui esse tantum.

Decem [illegible] iuuamentum sciae aīae ad alias scias inuenit tribus modis.

[illegible]

Quęrimus autem contemplari, & cognoscere naturam ipsius, & substantiam: postea quaecunq; accidunt circa ipsam: quorum alia quidem propriae passiones videntur, alia aūt cōmunes, & animalibus propter illam inesse.

Et quaesitum est scire naturam, & substantiam eius: postea autem oīa, quae accidunt ei. & existimatum est q; horum accidentiū quaedam sunt passiones propriae animae, & quae-

50 dam accidunt corpori propter animam.

3 Cùm demonstrauit vtilitatem huius scientiae, incepit demonstrare intentionem suam dicendo. Et quaesitum est, &c. i. & illud, quod quaerendū est in hac scīa, & perscrutandum, est [illegible], i. substantiam eius. deinde scire oīa contingentia ei: sicut est de alijs cōsyderandis in scīa Naturali. * Cognitio.n. cuiuslibet generis, & ipsi nō comprehenduntur nisi per cognitionem

[illegible]

صفحة من الترجمة اللاتينية لرسالة أرسطو في النفس وشرح ابن رشد لها.
من كتاب عبقرية الحضارة العربية.